Folklore

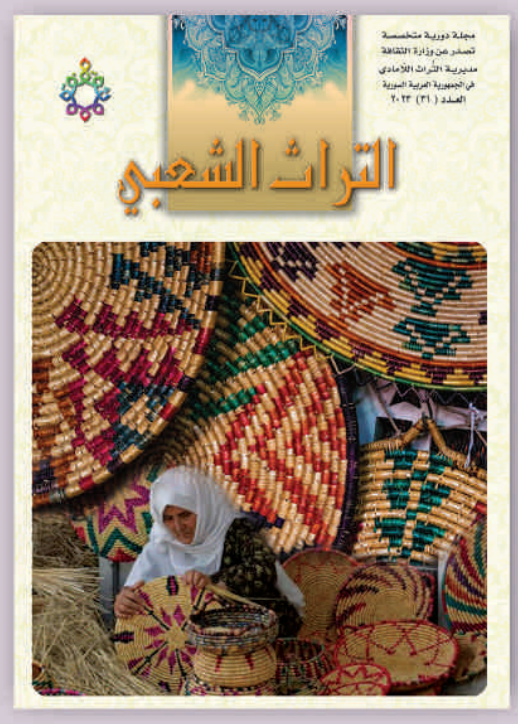

Aquartly issued by: Ministry of Culture in S.A.R
Issue No. (31) 2023

General supervision

Dr. Loubana Mouchaweh
Minister Of Culture

Chief Editor :

Thaer Zen ElDen

Managing Editor:

Roula Akili

Editorial Board:

- **Mohammed Kasem**
- **Hassan Abdel Hak**
- **Layal Abo Alezz**
- **Eyad Taba'a**
- **Mozaina Tawami**

Language Checker:

Mohammed Kasem

Printing Supervision:

Anas Al-Hasan

Technical Output:

Abdel Aziz Mohammed
azizmhmd32@gmail.com

For correspondence:
Chief Editor

Price: 2500 S.P. or what equate

التراث الشعبي

فصلية تصدر عن وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
العدد (٣١) - ٢٠٢٣م

الإشـــراف العـــام

الدكتورة لبانـة مشـوّح
وزيرة الثقافة

رئيس التحرير

ثائـر زيـن الديـن

مدير التحرير

م. رولا عقيلـي

هيئة التحرير

- محمّـد قاسـم
- حسان عبد الحق
- ليـال أبـو العـز
- إيـاد طبـاع
- مُزينـة توامـي

المراســلون

- كمـال الشـوفاني ... مراسل المنطقة الجنوبية
- نـدا حبيـب عـلي ... مراسلة المنطقة الساحلية
- أحمـد الحسـين ... مراسل المنطقة الشرقية

التدقيق اللُّغويّ

محمّـد قاسـم

الإشراف الطّباعيّ

أنـس الحسـن

الإخـراج الفنّـيّ

عبـد العزيـز محمـد

المراسلة : باسم السيد رئيس التحرير

الطباعة وفرز الألوان: مطبعة الهيئة العامة السورية للكتاب
السعر : 2500 ل.س أو ما يعادلها

عنوان المجلة: alturathalshabe@gmail.com

الفهرس

- كلمة الوزارة :

التراث اللامادي... عراقة الماضي وغنى الحاضر

وزيرة الثقافة الدكتورة لبانة مشوّح ٤

- **الافتتاحية :** أطبـــاق القـــش (رئيس التحرير) ٦

- الحداثة والتراث: إشكالية التراث الثقافي العربي بين حدود الهوية وآفاق العولمة

محمـــد قجّـــة ٨

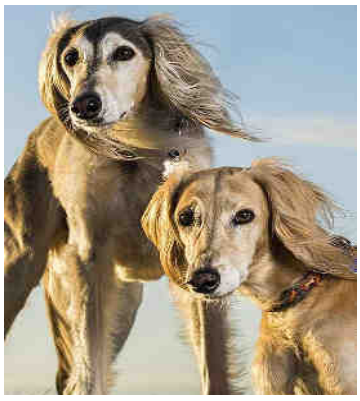

- قراءة في السيرة الشعبية للحلاج

رضـوان الســح ١٤

- صورٌ مِنْ أدب الكلب في التُّراث

د. محمَّـــد قاســـم ١٦

- تراث الخيل في الجزيرة السورية

أحمـــد الحســين ٢٢

- المطبخ الرحيباني التراثي

د. حسان عبد الحق ٤٣

- ما بينَ الخُرافةِ والحقيقةِ...
أوهامٌ وطقوسٌ خُرافيَّة
د. ليال سعيد أبو العز ٥٥

- من التراث الحضري الشعبي الشفوي في اللاذقية
ندا حبيب علي ٦٧

- ملابس الأطفال الدمشقيين بين القرنين العشرين والحادي والعشرين.... من السركس إلى الفيلد
نبيـــل تـــللو ٧٢

- نقائض في التدخين.. تبادلها بالمحكيّة شعراء من جبل العرب
نصر أبو إسماعيل ٨٠

- قراءة في كتاب :
(أرجوزة المرأة في بلاد الشام) «المُهَاهَاة»
وجيـــه حســـن ٨٩

- حكايات من روسيا البيضاء
مونولوج البئر المغلقة
د. ثائر زين الدين ٩٢

- آخـــر الكـــلام ...
مِنْ أَخْبَارِ الدِّيك في التراث
د. مُحَمَّـــد قاســـم ٩٩

التراث اللامادي... عراقة الماضي وغنى الحاضر

وزيرة الثقافة

الدكتورة لبانة مشوّح

تعتز الشعوب كافة بتراثها الثقافي عموماً بوصفه جزءاً لا يتجزأ من شخصيتها، وأحد أهم ركائز هُويتها الوطنية. وإذا كان التراث المادي شاهداً على تاريخ الأمم وعلى عظمة منجزها عبر الزمن، فإن التراث اللامادي يجمع بين إرث الماضي ومنجز الحاضر. إنه تراث مَعيشٌ ينبض بالحياة. بل هو بمنزلة الروح لحملته، يلازمهم بكل دقائقه، يستمتعون بممارسته، ويتمسكون به باعتباره جزءاً من ذاكرتهم. لكنها ليست ذاكرة قابعة في ركن قصيّ

من أركان لاوعيهم؛ إنها ذاكرة حيّة، تستمد عناصرها من الموروث، وتتعزّز بالممارسات. التراث اللامادي ينهل من الماضي ليلوّن الحاضر بما يضفي عليه نكهة خاصة ورونقاً وفرادةً. يعيد التراث الحي اكتشاف الذات، ويعزّز الشعور بتميزها شأنه في ذلك شأن التراث الأثري. وإدراك هذا التميز يقوّي الشعور بالانتماء، ويعدّ أحد أهم الأسلحة في وجه التسطيح والعولمة الثقافية.

هذا العدد من مجلة التراث الشعبي أشبه بحديقة غنّاء يجد القارئ في أفيائها غنى وتنوعاً يتناسبان وغنى التراث اللامادي السوري. يُتاح له أن يتنقّل في مختلف أرجاء الجغرافية السورية بين مناطق القلمون، والجزيرة الفراتية، والساحل، والمنطقة الجنوبية ليتجوّل في أزقة دمشق وقرى السويداء، ويتعرف باقةً من عناصر تراثية تنوعت بين أشكال من اللباس التراثي والعادات المرتبطة به؛ وألوان المأكولات وطقوس إعدادها؛ وأسرار تربية الخيول العربية الأصيلة؛ وجماليات حرفة صناعة القش؛ والمتوارث في زراعة التبغ؛ والمهاهاة في بلاد الشام، أصولها وطريقة أدائها وبساطة ألفاظها وعمق معانيها. كلّها عناصر حافظ حملتها عليها بعناية، وغدت سمة مميزة لوجودهم. كما تفرّغ باحثون لتوثيقها بما تحمله من أصالة في الممارسات والمهارات، ومن قيم جمالية واقتصادية واجتماعية. كذلك يجد القارئ ما يغنيه في معرفة بعض ما علق في الوجدان الشعبي من شخصية الحلاج الأسطورية، وينتقل إلى التمعن في الصلة بين الطقس والخرافة، وفي إشكالية التراث الثقافي وأهميته بالنسبة إلى الهوية وأثره في توسيع الآفاق المعرفية.

مشهد جمالي معرفي يماثل في اتساعه وغناه غنى التراث السوري الحي في الذاكرة والوجدان والممارسة.

أطباق القش

رئيس التحرير

د. ثائر زين الدين

ما من بيتٍ في الريف السوري، بل في بعض المدنِ أيضاً إلّا وكان يستخدمُ الأدواتِ والمنتجات المصنوعة من القش؛ وما زالت الأمور كذلك في كثيرٍ من البقاع السوريّة، ولا سيّما أطباق القش المختلفة، التي إنْ لم يُفرَشُ فوقها الطعام، فقد أصبحت تُعلَّقُ على الجدران، بوصفها تحفاً فنيّة.

كانت جدَّتي تحبُّ صناعة أطباق القش، حتى بعد أن غادرت القرية وسكنت عندنا، نحن أسرة ابنها المعلّم، في المدينة، كانت إحدى صاحباتها تجلبُ لها سيقان القمح من القرية بعد موسمِ الحصاد، وكنت أنتبه إلى جمال تلك السوق ذهبيّة اللون وإلى أطوالها المتناسقة التي لا تقل غالباً عن ٣٠ سم، وكان يحدثُ أن تتعاون جدّتي مع صديقتها تلك في إذابة مواد مسحوقة مختلفة الألوان بالماء المغلي، وتغطيس القش فيها زمناً قد يصل إلى ساعتين أو ثلاث حتى تتشرَّب سيقان القمح الألوان، ثمَّ تنشَّف جيداً في أشعة الشمس، حتى إذا ما أرادتا البدء بالعمل، عادتا فنقعتا تلك السيقان بالماء لتكتسب شيئاً من اللين،

يمكّنهما من التعامل معها، لم تكن جدتي تتقن إلّا صناعة الطبق الذي يوضع عليه الطعام، لكن صاحبتها كانت تصنعُ قفّةً أحياناً، و بيتاً للخبز العربي ذا غطاءٍ، وأشياء أخرى مختلفة.

أذكر أن المرأتين الطيبتين كانتا تستخدمان بضع أدواتٍ في عملهما كالمخرز والمسلّة والقطفة أو المقص، وكانتا تتبادلان الأحاديث، وترويان الحكايات، وتتناقلان الأخبار دون أن يعيقهما ذلك عن إنجاز تحفٍ مذهلة، ما زلتُ أحتفظُ بإحداها؛ وهو طبقٌ باهرٌ مصنوعٌ من قشٍّ ناعمٍ ذي أقطارٍ أصغر من المعتاد، ومزيّنٍ برسومٍ دائريّة مختلفة الألوان تتكرَّرُ في حلقات الطبق، وتصغرُ حتى تلتئم في نواته المركزيّة.

فيما بعد رأيتُ أشكالاً وأدوات كثيرة عند أصدقائي في بعض القرى مصنوعة كما علمتُ من قش القمح والشعير، وفي بعض القرى السوريّة الساحليّة والشماليّة، من قشر الخيزران وعيدان الآس ونبات الصفصاف وما إلى ذلك، ولا سيّما تلك السلال المختلفة متنوّعة الأغراض والأحجام التي لا يخلو منها بيت الفلّاح، والتي ورد ذكرها في الأدب الشعبي كثيراً؛ تقول أغنية ردَّدتها النسوة فيما مضى في ريف دمشق:

غنّوا يا بنات غنّوا بشغل القش واتأنّوا
وحطّوا طبق عا لطبق وخلّوا العالم يتهنّوا
غنّوا غنّوا يا بنات انقعوا بالمي القشّات
وهاتو طبق الزبيبات واحكوا للعالم عنّو
غنّوا على أكل التين والطبق بدوا إيدين
يالله ارقصوا اثنين اثنين والصبح ضحك سنّو

ليست هذه الحرفة أو الصناعة الشعبيّة جديدة على بلادنا، فعمرها يمتد مئات السنين في ماضينا، لكنّها بدأت هذه الأيام تندثر، لأسبابٍ كثيرة أهمها انخفاض الطلب عليها، بسبب منافسة المنتجات الحديثة التي تؤدي دورها نفسه، وبسبب تغيّر طبيعة الحياة، وأنماط معيشة الناس وما إلى ذلك، لكنَّها ما زالت موجودة في بعض المناطق الريفيّة، وينبغي أن نعمل على حمايتها من الاندثار، بكل الوسائل الممكنة.

الحداثة والتراث: إشكالية التراث الثقافي العربي بين حدود الهوية وآفاق العولمة

محمد قجّة

مدخل:

منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى اليوم، يعيش الوطن العربي والعالم الإسلامي أزمةً تدور حول الحداثة والتراث، أو المعاصرة والأصالة، في إطار تدفّق موجات الحضارة الغربية وإفرازاتها في شتى المناحي الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. ومن الطبيعي أن يأخذ المسار التاريخي للمجتمعات منحى الحداثة والتطوّر والتجديد، وهذا أمرٌ متّفق عليه بين المدارس الفكرية المختلفة. ولكن الخلاف يكمن في تنظير مفهوم التحديث والتطوير، ووضع الأسس والمعايير التي يقوم عليها هذا المفهوم، وما ينبثق عنه من نتائج.

وقد حفل تاريخ الفكر في عالم العرب والمسلمين بمحاولاتٍ شتّى للإحياء والتجديد، وهذا ما تؤكده التيارات الفكرية المتباينة عبر هذا التاريخ، وما خلّفتْه من نتاجٍ فكريّ ضخم في مجال الفلسفة وعلم الكلام والفقه، وتمثّلَ هذا النتاج في مدارس كالمعتزلة والأشاعرة والشيعة وإخوان الصفا والرشدية والتصوّف.

وفي العصر الحديث نجد صدى ذلك لدى الحركات السلفية في محاولتها صياغةَ رؤيةٍ جديدة في العودة إلى الأصول. ثم لدى منظّري ما يسمى بعصر النهضة العربية، وبعد ذلك أنصار الحداثة الغربية، وما أنتجه ذلك كله من صراعاتٍ وخلافات لا زلنا

نعيشها حتى اليوم. وأخذت بعض التساؤلات طريقها إلى حلبة النقاش حول الديمقراطية التي حملت اسم الشورى، والحرية التي حملت اسم العدالة، والعلمانية التي حملت اسم العقلانية، وموضوع العلاقة بين السلطة السياسية والسلطة الدينية، وتوسّعت الأسئلة حول مدى النجاح أو الإخفاق الذي آلتْ إليه حركات التجديد والتحديث، والحدود التي توقّفت عندها، ومناهجها بين الوضوح والتشتّت.

وانطلاقاً من هذا المدخل نتوقّف الآن لمحاولة تحديد مفهوم التراث ثم الحداثة، ومحاولة الإجابة عن بعض الأسئلة المتصلة بهذا المفهوم.

التراث:

وهذه الكلمة تعني لغةً «الميراث»، من أصل ورثَ. وكلمات الورث والإرث والميراث والتراث تعني كل ما يورّث. وقيل: الميراث في المال، والإرث في الحسب والمجد، وأصبحت الدلالة الاصطلاحية للتراث تعني كل ما يتصل بالإرث الحضاريّ من فكرٍ وعلومٍ وعاداتٍ وثقافات، بحيث ارتبط مفهوم التراث بشخصية الأمة وخصوصيتها وهويّتها.

وعلى هذا الأساس يمكننا تحديد بعض الاتجاهات التي تشكّل التراث، وهي:

أ. التراث المادّيّ بأشكاله المختلفة، من عمارةٍ تمثّل الأزمنة المتلاحقة كما تمثّل الوظائف الاجتماعية والرؤية الفكرية. وقد ساعد تطوّر علم الآثار خلال السنوات المئة الأخيرة في بَلْوَرة هذا اللون من التراث المادّيّ الذي هو تراث الحجر، كشاهدٍ على فلسفة عصرٍ من العصور بكل أبعادها وتجلّياتها.

وأمكن لهذا العلم -علم الآثار- أن يعمّق من جذور المجتمعات البشرية، ويربط بين الحضارات المتلاحقة. وهكذا أمكننا أن نعرف أنّ بلادنا هي مهد الحضارات البشرية في حوضي الفرات والنيل، وأن بلادنا عرفت الاستيطانَ البشري الأول في حوض الفرات (منطقة المريبط)، والملاحمَ الأولى (في بابل وأوغاريت وممفيس) التي سبقت ملاحم الإغريق بآلاف السنين، وأن بلادنا قدّمت أهم كشفٍ حضاريّ في تاريخ البشرية وهو الأبجديّة «أوغاريت ثم جبيل». ثم قدّمت للبشرية نتاج الحضارة الإسلامية بآفاقها المتسامحة المرنة المحترمة للآخر، والقابلة للتعدّدية والحوار. وقدّمت لنا الرُّقُم المكتشفة دليلاً مادياً قاطعاً على أهمية هذا التراث، لأنها أوضحت صورة الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية والفنية عبر آلاف السنين.

وإلى جانب العمارة كتراثٍ ماديّ، تبرز في تاريخنا ظاهرةٌ مهمة وفريدة، هي ملايين المخطوطات الباقية رغم عوادي الزمن، ورغم الدمار والأهوال والحرائق في بغداد وغرناطة وسواهما. وهذه المخطوطات ليست تراثاً دينياً فحسب، بل إنها سجلٌّ لكل العلوم البشرية من إنسانيةٍ وبحتةٍ وتطبيقية، وهي تمتدّ على مسافة قارات العالم القديم آسيا وإفريقيا وأوروبا، كما تمتدّ على زمنٍ يزيد على عشرة قرون. وتشير إحصائياتٌ تقريبيّة معاصرةٌ إلى وجود ستة ملايين مخطوطٍ باللغة العربية في مكتبات العالم، ثلثها في مكتبات تركيا، وقرابة مليون مخطوط في إيران، والباقي موزّع بين مدن العالم التي انتهت إليها هذه الكتب، كالقاهرة والرباط وفاس وتونس والأسكوريال وبطرسبورغ وسمرقند وحلب وليدن ولندن.... إلخ. إلى جانب ذلك هناك الأعداد الهائلة من الكتب التي تنتمي إلى الحضارة الإسلامية بلغاتٍ غير العربية، وأهمها الفارسية، ثم التركية والأوردية وغيرها.

ب. التراث الروحي، أو التراث غير المكتوب، ويتمثّل في منظومة القيم والعادات والتقاليد، والثقافة الشفوية من حِكَمٍ وأمثالٍ ودلالاتٍ لفظيّة متميزة خاصة بالبُعد المكانيّ والزمانيّ، وهي تختلف بين بيئةٍ وأخرى. والفولكلور الشعبي بما فيه من تراثٍ موسيقيٍّ وغنائيّ وأهازيج ونكات وحكايات.

وعلى ذلك فإن لكلِّ أُمّة تراثَها الخاص بشقّيه المادي والروحي، وهو الذي يمنحها شخصيتها وهويّتها وتميّزها.

الحداثة:

أما الحداثة فتعني لغوياً ما هو ضدّ القديم، وقد اصطلح الباحثون على مفهوم يتصل بالعمليات التي تتمّ لإحداث تبدّلات في المجتمع تدفعه إلى الأمام، وهذه العمليات تصطدم عادةً بالرؤية القديمة أو التقليدية، فينشأ صراع الأصالة والمعاصرة، أو التراث والحداثة. وهذا المفهوم يطرح بعض التساؤلات، وأهمها:

أ-هل من الضروريّ أن تكون الحداثة هدماً لكل ما هو قديم، وإلغاءً لكلّ ما هو تقليديّ؟

ب-هل عرف تاريخ الحضارة العربية الإسلامية دعوات للتغيير والتحديث؟ أم بقي في حالة جمود حضاريٍّ مقيت؟ وهل تشير بعض قواعد أصول الفقه إلى دعوة إلى التحديث، من أمثال: سدّ الذرائع، المصالح المرسَلة، تغيُّر الأحكام بتغيُّر الأزمان.

ج- هل من الضروري فهم الحداثة على أنها النموذج المنبثق عن الحضارة الغربية في رؤيتها للكون والحياة؟ وهل من الضروري فرضُ هذه الرؤية على كل ما يخالفها من رؤىً وفلسفاتٍ وتصوّرات؟

د- هل يرتبط مفهوم التجديد بمفهوم الإبداع؟ أم هو مجرّد تغيير تسميات لمسمّيات قديمة بأخرى حديثة؟ أي: هل التجديدُ توليدُ معانٍ حضارية مبتكرة؟ أم هو تجديدُ تسمياتٍ لمعانٍ تقليدية؟

لقد ولدت الحداثة الغربية في ظلّ تطوّرات لا تتطابق بالضرورة مع ظروف المجتمعات والحضارات الأخرى. وهذه الحداثة التي يعود مخاضها إلى القرن الخامس عشر الميلادي، مرّت بمراحل من استعادة القيم الإغريقية والابتعاد عن المسيحية وسلطة رجال الدين، ثم الإصلاح «اللوثري»، والثورة الصناعية، والثورة الفرنسية، وما نجم عن ذلك كلّه من تغييرات واسعة في طبقات المجتمع وامتيازاتها، بحيث تمّ إدخال جماهير الشعوب في العملية الديموقراطية سياسياً واجتماعياً، وتقليص أو إلغاء دور الفئات القليلة صاحبة الامتيازات الدينية والاجتماعية والاقتصادية.

وقد أسهمت الكشوف الجغرافية الواسعة وإطلاق حركة الاستعمار في إنجاح الثورة الصناعية والقفزات الاقتصادية، وبدأ أصحاب هذه المصالح يبحثون عن منظّرين يؤطّرون لهم شرعية التوسّع على حساب الشعوب والحضارات الأخرى، وفرْض ما يسمّى بالتنوير الأوروبي على المجتمعات البشرية في شتّى القارات. فكانت عمليات التبشير المنهجي والاستشراق المرتبط بدوائر الخارجية والأمن، والامتداد العسكري على القارات القديمة والجديدة، ووصول هذا الامتداد إلى ذروته اليوم من خلال محاولة عولمة الكرة الأرضية في إطار رؤية أحادية ضيّقة، تلغي الثقافات والحضارات واللغات والخصوصيات، وتحوّل الكون إلى مجموعةٍ من القرى تفرض عليها نموذجاً واحداً.

وفي حالة الوطن العربي والعالم الإسلامي، تباينت المواقف من مفهوم الحداثة الغربي، ويمكن تلخيص هذه المواقف فيما يلي:

أ- الانبهار بالحضارة الغربية والدعوة إلى قبول كل ما وَرد منها في شتى المجالات التقنية والإنسانية والفكرية.

ب- الرفض المطلق لكل ما يرِد من تلك الحضارة.

ج- رفض الفكر الغربي، والقبول بالتقنيات والإنجازات الصناعية والعلمية.

د- التوفيقية المرنة في التعاطي مع آفاق الحضارة الغربية في مجالات الفكر والتقنية والإنجازات المختلفة.

وقد أدى اللهاث المتسرع وراء الحداثة الغربية خلال القرن العشرين إلى نتائج كارثيةٍ بالنسبة

للتراث، لأن التيار المنبهر بالحداثة الغربية فهمَ تلك الحداثة إلغاءً للماضي بأشكاله المادية والروحية، والانطلاق في مضمار الرؤية الغربية وقيمها وتقاليدها. وكان من أخطر ما نجمَ عن ذلك ما قمنا به من هدم وتدمير لأوابدنا العمرانية والمعمارية في سياق إعادة تخطيط مدننا وفق آراء الخبراء الغربيين، الذين استقدمناهم بالإجلال والتقديس، وقمنا بشقّ الشوارع في المدن القديمة وهدم آلاف الأبنية التراثية من مدارس وأسواق وجوامع ودُوَر باذخة، وقمنا بمركزة الأنشطة الإدارية والاقتصادية في قلب المدينة القديمة، مما استدعى الإيغال في الهدم والتوسّع. في الوقت الذي كان فيه الأوروبيون يعيدون ما هدمتْه الحرب العلمية الثانية على الشكل الذي كان عليه قبل الحرب. وهكذا غابت معالم مدننا القديمة، كالقاهرة ودمشق وبغداد وسواها الكثير، وبدلاً من أن نتوسّع في الأراضي الممتدة خارج نطاق المدينة القديمة، رحنا نهدم تلك المدينة لنقيم مكانها علب الكرتون الإسمنتيّ، ونلغي ذاكرتنا المعمارية الحضارية، وقد تم الانتباه إلى خطر ما فعلنا، ولكن بعد أن سبق السيفُ العذل، ولكنّ كثيراً من المدن حافظت بنسبة تقلّ أو تكثر على خصوصيتها الحضارية المعمارية، مثل فاس وتونس وحلب وأصفهان والقيروان وغيرها.

وفي المقابل كانت هناك دعوات إلى الانكفاء على الذات وتقديس الماضي ورؤية التراث ككائن متحجّر لا حياةَ فيه. وقد فهمَ كثيرٌ من الحداثيين أن التراث المكتوب مجموعةٌ من الأوراق الصفراء البالية التي تضمّ الأذكار والأدعية والفتاوى القديمة المترهّلة، ومن ثَمَّ، فإنهم قد أداروا ظهورهم لكلّ مكونات هذا التراث المكتوب، وتوجّهوا صوب النصّ الغربيّ، داعين إلى ربط الثقافة العربية بركاب الثقافة الغربية كسبيلٍ وحيدٍ للتطور والنجاة.

هذه الإشكالية في قراءة التراث تبلورتْ منذ منتصف القرن العشرين في أبعاد مختلفةٍ لخلفية تلك القراءة، وهكذا رأينا التفسير الدينيّ السلفيّ أو الدينيّ المستنير، أو التفسير القوميّ الذي دعتْ إليه الحركات القومية، أو التفسير الماركسيّ لحركة التاريخ، أو التفسير المتّكئ على الاستشراق في بحثه عن ثغرات التراث وتضخيمها وتهويلها. فيما اعتمد التفسيرُ السلفي على رؤية تقديسية للتراث تحجب القراءة الموضوعية. وركّزت القراءةُ الماركسية على البعد الاقتصادي في تفسير التاريخ وحركته. وحاولت القراءةُ القومية أن تفصل بين التفسير الدينيّ التقديسيّ الضيق والتفسير الإيمانيّ المرن، وأن تربط هذا التفسير الأخير -ولو كان ربطاً هامشياً- بالبُعد القوميّ التاريخي.

لقد خرجت بعض هذه الحركات من إطار التاريخ وخرجت معها قراءاتها الآنية، وبقيت ظلالٌ شتى من تلك القراءات تحاول أن تعيد صياغة تصوراتها وفق المعطيات الجديدة.

إن التراث -بأشكاله المادية والمكتوبة والشفوية والروحية- قد خضع لهزّات عنيفة، بعضها مبرمَجٌ تخريبيّ، وبعضها طائشٌ متهوّر، ولكنها أدّت في نهاية المطاف إلى إلحاق الضرر البالغ بهوية الأمة، من خلال زعزعة ثقتها بأصالتها وجذورها. لقد تمكّنت الحضارة الغربية من تمزيقنا سياسياً، وحصارنا عسكرياً، ونهبنا اقتصادياً، وفرضتْ نموذج حياتها وثقافتها ولغاتها: الفرنكفونية في المغرب العربي، والأنكلوفونية في المشرق العربي ووسط آسيا. وها هي تحاول اليوم في إطار ما يسمى «العولمة» أن تدمّر الجدار الأخير الذي نسند إليه ظهورنا، وهو جدار الثقافة والتراث الخاص. وكأنها تريد أن تحصد ما زرعته خلال عدّة عقود في القرنين الأخيرين من مؤامرات وخطط تدميرية.

إن مثال التدمير المنهجي المبرمج لرموز التراث في العراق مطلع الألفية، من متاحف ومكتبات وآثار، لم يأت مصادفةً ولا عبثاً، ولم يقم به لصوصٌ ولا

قطّاع طرق، إنه عملٌ منظّمٌ مُسَيّس يستند إلى فكرٍ عدوانيٍّ حاقد يحاول رسم تفسيرٍ جديدٍ للتاريخ، ويحاول أن يلوي ذراع الحقائق الكونية، خدمةً لرؤيته الأيديولوجية والسياسية. إن هذا المثال مرتبطٌ بالهجمة الثقافية التي تريد إعادة صياغة مناهج التعليم والإعلام والثقافة في الوطن العربي والعالم الإسلامي بصورةٍ فظّة لخدمة آخر مواسم الحصاد في تصوّر أصحاب تلك الهجمة.

ألا يحقّ لنا أن نطرح التساؤل المشروع حول الأسباب الكامنة وراء إخفاقاتنا المتتالية سياسياً وعسكرياً وحضارياً، ووصولنا إلى حافة الانهيار؟

هل لهذا الانهيار خلفيةٌ تاريخيةٌ ترفض عملية التحديث؟

أم هي خلفيةٌ فصامية تقف -وقد تَمَلَّكَها الشعورُ بالنقص- أمام الآخر؟

أم هي حالةُ الإحساس بالقمع والتهميش، وإلغاء دور رجل الشارع العربي أمام قبضة السلطة السياسية أو السلطة الدينية، أو كلتيهما معاً وقد تحوّلت الثانية إلى ذراع للأولى؟

أم هي خلفية الجري وراء مظاهر الحداثة المدنية من أدوات استهلاك، وحياةٍ يومية سهلة وثقافةٍ سطحية هلامية؟

إننا نعيش اليوم مع بدايات القرن الحادي والعشرين حالةً من عدم التوازن، تتمثل في أشكال مختلفة، منها:

- التباعد بين مفهومي الزمان والمكان في الإطار الحضاري، بحيث أصبحنا نقطع أوصال العهود التاريخية بدلاً من قراءتها كتسلسلٍ حضاريٍّ متماسك، وبحيث أصبحنا ندير ظهورنا للجغرافية السياسية والجغرافية الثقافية، فنكرّس الإقليمية والقطرية، في الوقت الذي يتّجه فيه الأوروبي إلى وحدته السياسية والاقتصادية.

- وصول مرحلة إلغاء الثقافة الوطنية إلى منعرَجٍ خطير نتيجة القوى الخارجية الضاغطة، وضعف القوى المحلية المقاومة. وهذا ما نلاحظه من خلال تفكيك الأواصر الثقافية المشتركة بين أقطار الوطن العربي والجوار الجغرافي الإسلامي، بل تفكيك المجتمعات المحلية على أسسٍ قَبَلية وعرقية وطائفية، ورسم خرائط معلنةٍ تعيد تقسيم المنطقة إلى كانتونات هزيلة.

- فرض ثقافة الاستهلاك واقتصاد السوق ولغة الآخر في مقابل تحقير الثقافة التراثية، وتهميش اللغة العربية وإضعافها وإبعادها عن حقول العلوم الحديثة. ومحاولة قطع صلة الحاضر بالماضي، وتكوين المستقبل بأجياله الجديدة وفق رؤيةٍ غربيةٍ منحازة.

إذا كنا نرفض الانغلاق على الماضي، ونرفض في الوقت نفسه الغرقَ في بحيرة الآخر، فما الذي يمكن أن نفعله لإعادة التوازن الذي فقدناه: التوازن المنهجي بين التراث والحداثة؟

يمكننا أن نتوقف هنا عند النقاط الآتية:

١- ربط المكونات الثقافية التراثية والروحية بالإطار الفلسفيّ العام الناظم للأسس الفكرية لأمتنا.

٢- التمثّل العلميّ الموضوعي للتراث، وقراءته في إطار فهمٍ عقلانيّ لا يعتمد التقديس ولا التهميش. واستخدام علوم العصر في تلك القراءة بكل ما تعنيه هذه العلوم من تطوّرٍ وثقافة وحداثة.

٣- التخصّص في قراءة مفردات المعرفة التراثية، من دينٍ وآداب وفلسفةٍ وعلوم ومعارف إنسانية متنوعة. وتهيئة الإطار البشري والأموال اللازمة لهذا العمل المتخصص.

٤- التركيز على الجوانب الحضارية المشرقة في التراث، في شتى نواحيه الفكرية والفلسفية والعلمية والروحية والعمرانية. وهي كلها تدعو إلى احترام الآخر وعدم رفضه، كما تدعو إلى الحوار والتسامح.

٥- الاستعداد لقبول التعدّدية في تفسير النصوص وقراءة التراث، والاستعانة في ذلك بمجالات العصر الحديث كالأنتربولوجيا وتاريخ المفاهيم ونقد الأصول والفروع، ومناهج النقد المعرفي بحقولها المتباينة وأنماطها المختلفة.

٦- إعادة قراءة بعض المفاهيم القديمة من خلال رؤية عقلانية مرنة، مثل: مفهوم العقل والنقل، الثابت والمتحوّل، المقدّس، الاتصال والانقطاع.

٧- الاستعانة بعلم الآثار، وتأكيد دوره في التواصل التاريخي وفي توثيق الحقائق التاريخية حول الدور الرائد لبلادنا في الحضارات البشرية.

٨- التسلّح بالعقل النقديّ المرن، والأسلوب التوثيقي المحقّق الموضوعي، ووضع إستراتيجية بعيدة المدى تشمل:

* صيانة التراث المادي، وبخاصة العمراني والمعماري، وإعادة توظيف ما يمكن توظيفه ثقافياً.

* تحقيق المخطوطات وإنشاء المعاهد المتخصصة لذلك، وتوسيع دور مجامع اللغة العربية وتوحيد جهودها.

* التوثيق الدؤوب للتراث الشفوي، الذي يتلاشى يومياً وسط زحام الفضائيات وهجمة الإعلام بعنفه ومجونه وسطحيته، والاستفادة من أدوات الحداثة التقنية في عملية التوثيق.

٩- توسيع هامش حرية الفكر خارج إطار السلطة السياسية والسلطة الدينية السلفية، وإيجاد المناخ لطرح مقولات الثابت والمتحول، والمعقول والمنقول، والمؤكد والمبدّد.

١٠- ضرورة الاستفادة من واقع الجغرافية السياسية للوطن العربي وإطاره الإقليمي، وعدم السماح بتفكيك هذا الواقع. والاستفادة من واقع الجغرافية الثقافية والتواصل التاريخي، للوقوف ولو قليلاً في وجه هذا المدّ الشرس الذي يريد ابتلاع كل شيء.

إن التحدّيات أكبر من التوقّف والانتظار، وعلينا الخروج من حالة الترهّل التي نحن فيها. وإلا أصبحنا ذكرياتٍ تاريخيةً عابرة.

قراءة في السيرة الشعبية للحلاج

رضـــوان الســـح

حقّقت كتاب (السيرة الشعبية للحلاج) متضمناً النص المحقق، ودراسة ملحقة بهذا النص بعنوان (الوعي الصوفي الشعبي). وقد تضمنت هذه الدراسة الحديث عن حبكة السيرة، وقراءة في مفهومي الشر والبطولة، ومفهومي الواقع والخيال، ومفهومي المعرفة والسلطة، ومفهوم الحلم. وختمت هذه الدراسة بتحليل للرموز التي تضمنتها السيرة. وصدر الكتاب، في طبعته الأولى، عن دار صادر ببيروت عام ١٩٩٨. وقد زين غلاف الكتاب لوحة حروفية للباحث الراحل الدكتور سامي مكارم أستاذ الدراسات العربية والإسلامية في الجامعة الأمريكية في بيروت، وهو صاحب كتاب (الحلاج في ما وراء المعنى والخط واللون). وقد كرّمني د. مكارم أن كان أحد الأساتذة الذين ناقشوا رسالتي في الماجستير، وكانت بعنوان (فلسفة القيم في تجربة الحلاج).

إن حديثنا هذا يفتح مجالاً للقول: إنّ السيرة الشعبية للحلاج بحاجة إلى الصدور بطبعة جديدة تستكمل فيها مخطوطاتها، وتحظى بدراسة أشمل لوقائعها ورموزها. وأقدم الآن لمجلتنا الرائدة محلياً في مجال التراث الشعبي (مجلة التراث الشعبي) قراءة موجزة في هذه السيرة الشعبية.

تمثل (السيرة الشعبية للحلاج) نموذجاً خاصاً بين السير الشعبية المعروفة في بيئتنا العربية مثل: الزير سالم، وعنترة بن شداد، وحمزة البهلوان، والملك الظاهر، ومجنون ليلى .. إلخ، وذلك في تمثيل هذه السيرة للوعي الصوفي الشعبي، وكيف استطاع هذا الوعي، بعبقريته التي تشبه عبقرية الحلم في النفاذ إلى خفايا اللاشعور، أن ينفذ إلى مكنونات التصوف الشديدة التعقيد في ثقافتها العالِمة، ويعرضها بمنتهى البساطة والتكثيف.

إن التحـول الـذي يطرأ علـى الشخصيـة، وفق السـيرة الشعبيـة، فينقلها مـن الحالـة (العادية) أو (السويـة) إلى الحالـة (الصوفية)، هـو فعل من نوع السحر، فالتميمة التي يحفظها الشيخ الجنيد في ورقة ليفيـد من بركتهـا في الفتح وبلوغ الأسـرار، قد سبقه إليهـا، دون قصـد، تلميـذه الصغـير حسين الحلاج، وشربهـا علـى الريـق، فأشرقـت أنوارهـا في أقوالـه وأفعاله.

لقـد تجـاوزت سـيرة الحـلاج الشعبيـة سيرته التاريخية، فلـم تُعر الوثيقة التاريخيـة بالاً، بل سعت بفضـل التبسيط إلى الوقوف على الجوهر في الصراع الدائـر، في دولـة الخلافـة الإسلامية، بـين الخليفة والفقيـه مـن جهـة، وبـين الصوفي مـن جهـة ثانية. فانتقت السـيرة من الأحداث التاريخيـة حدث اتهام الحـلاج ومحاكمتـه وإعدامه، وهو الحـدث الأهم في تاريخ الحلاج لا شك.

أبـرزت السيرة الشعبيـة المكانـة الرفيعة للشيخ الصوفي، وهو هنا الجنيـد، وكيف كان مريده الحلاج يجلُّه وينصاع لأوامـره بطاعة المحب، على الرغم من أن الجنيد يتعاون مـع الخليفة والفقهاء لإنزال عقوبة الإعدام بالحلاج. بل إن الوعي الصوفي الشعبي يُظهر تسامحـاً نادراً مع سلطة الخليفة والفقهاء، ويُظهر أن تنفيذ عقوبة القتل، على الرغم من فظاعتها، هي أمر لا بـدّ منه باتفاق الشريعـة والطريقة، لأن الحلاج قد بـاح بالأسـرار. ولكـن الطريف في نظـرة السيرة إلى الحـلاج أنها تبقـى إيجابية على الرغم مـن إقرارها بصحة حكم الإعدام.

تجلّى الحل العبقري للمخيلة الشعبية، في ذروته، عندما ضربت هذه المخيلة صفحاً عن تفاصيل التهمة الفقهيـة المتعلقـة ببدعـة الحـلاج في مسألـة الحج، وفـق الوثيقة التاريخيـة، واستعاضت عنهـا بتهمة لم تُذكـر في أي وثيقة تاريخية، وهـذه التهمة هي تكذيب المـؤذن. وبذلك تظهر القيمـة الأسمى للتصوف، وفق السـيرة الشعبية، في قيمة الصـدق والإخلاص، بينما يقع خصوم الحلاج في الكـذب والنفاق عند إعلائهم شأن (العبارة) على حسـاب (الإشارة) أو (الوجد). فالمؤذن ينطق بعبارة صادقة، إلا أنه لا يمتلك ما يعادل هذه العبارة من وجد.

وتكتنز السيرة الشعبيـة بمفاجآت كثيرة للمطَّلع علـى الوقائـع التاريخيـة التـي سجلتها كتـب التاريخ عـن الحلاج. لقد قام الجنيد، وفـق السيرة الشعبية، بتسليـم الحلاج إلى الخليفة لينفـذ به حكم الإعدام، وحضر تنفيذ الحكم، مـع أن الجنيد قد مات تاريخياً قبل مقتل الحلاج بأكثر من عقد من السنوات.

لقـد قامـت المخيلـة الشعبيـة باستبـدال أبـي بكـر الشبلـي الـذي حضر تاريخيـاً مشهـد الإعدام، واستعاضـت عنـه بالشخصيـة الأكـبر في مجـال التصـوف، وهي شخصية أبـي القاسم الجنيد. وهذا مـا حدث تمامـاً في استبدال نهر دجلـة والمجيء بنهر أكبر، هو نهر الفرات، ليُذرَّ فيه رماد الحلاج بعد حرق جثته.

لا تبحـث المخيلـة الشعبية عـن تفاصيل الحدث من حيـث الواقعية التاريخية، بل عمـا يمكن أن يمثل هذا الحـدث في الدرامـا الكونية، ولهذا أكـد أرسطو في كتابـه (فن الشعـر) أن الشعر، وهـو نتاج المخيلة، أعمـقُ فلسفـةً من التاريـخ. وانطلاقاً من هـذا المبدأ يمكـن أن نفهم آليـة عمل المخيلة الشعبيـة في إقصاء الثانـوي والاستعاضة عنه بنموذجـه الأصل. وهذا ما فعلتـه السيرة الشعبية للحلاج في أحداث وشخصيات وأماكـن عديدة. وقبل كل ذلك قد اختارت الشخصية الصوفية الأكثر عمقاً وإشكاليةً ودرامية لتنسج حولها، دون الشخصيات الصوفية الأخرى، سيرة شعبية.

صورٌ مِنْ أدب الكلب في التُّراث

د. محمَّـــد قاســـم

الكلب حيوانٌ شديدُ الرّياضة، كثير الوفاء، وهو لا سَبُعٌ ولا بهيمةٌ، حتّى كَأَنَّهُ من الخَلْقِ المُرَكَّب، لأَنَّهُ لو تَمَّ لَهُ طباعُ السَّبُعِيَّة ما أَلِفَ النَّاسَ، ولو تَمَّ لَهُ طِبَاعُ البَهِيْمِيَّة ما أكل لَحْمَ الحيوان.

وجمع الكلب أَكْلُبٌ وكِلابٌ وكَلِيْبٌ، مثل أَعْبُد وعِباد وعَبِيْد، وهو جَمْعٌ عزيزٌ، والأَكَالِبُ جمع أَكْلُب.

وقد قالوا في جَمْعِ كَلْب: كِلَابَاتٌ، قال الرَّاجز:

أَحَبُّ كَلْب في كِلابات النَّاسْ

إليَّ نَبْحاً كَلْبُ أُمِّ عَبَّاسْ

وسُئِلَ أبو الدُّقَيْش الأعرابيُّ: لمَ تُسَمُّون أبناءَكم بشَرِّ الأسماء، نحو كلب وذئب، وعبيدَكم بأَحْسَنِها، نحو مرزوق ورَبَاح؟

فقال: إنَّما نُسَمِّي أبناءَنا لأعدائنا، وعَبيدنا لأنفسنا! وكَأَنَّهم قصدوا بذلك التَّفاؤلَ بمُكَالَبَةِ العَدُوِّ وقَهْرِه.

ومن طبعه أَنَّهُ يحرس ربَّه، ويحمي حُرَمَهُ، شاهداً وغائباً، ذاكراً وغافلاً، نائماً ويقظانَ.

وهو أيقظُ الحيوان عَيْناً في وقت حاجته إلى النّوم، وإنَّما غالبُ نومه نهاراً عند الاستغناء عن الحراسة، وهو في نومه أَسْمَعُ من فرس، وأَحْذَرُ من عَقْعَق، وإذا نام كَسَرَ أَجْفَانَ عَيْنَيْه ولا يُطْبِقُها، وذلك لخفَّة نَوْمه.

ومِنْ عجيب طباعه أَنَّهُ يُكرم الجِلَّةَ من النَّاس وأَهْلَ الوجاهة، ولا يَنْبَحُ أحداً منهم، وربّما حاد عن طريقه، ويَنْبَحُ الأَسْوَدَ من النَّاس، والدَّنِسَ الثِّياب، والضَّعيفَ الحال.

ومن طباعه البَصْبَصَةُ والتَّرضِّي والتَّوَدُّدُ والتَّأَلُّفُ، بحيثُ إذا دُعِيَ بعد الضَّرْبِ والطَّرْدِ رَجَعَ.

وإذا لاعَبَهُ رَبُّهُ عَضَّهُ العَضّ الذي لا يُؤْلِمُ، وأضراسُهُ لو أَنْشَبَها في الحجر لنَشِبَتْ.

ويَقْبَلُ التَّأْدِيبَ والتَّلَقِّينَ والتَّعليمَ، حتّى لو وُضِعَتْ على رَأْسِهِ مِسْرَجَةٌ، وطُرِحَ له مَأْكُولٌ، لم يَلْتَفِتْ إليه مادام على تلك الحالة، فإذا أُخِذَتِ المِسْرَجَةُ عن رَأْسِهِ، وَثَبَ إلى مَأْكُولِهِ.

وقال الجاحظُ: واعلَمْ -أَعَزَّكَ اللّه- أنَّ الكلب لَمْ يقتنيه أشفقُ من الوالد على ولده، والأخ الشقيق على أخيه؛ وذلك أنَّهُ يحرسُ ربَّه، ويحمي حريمه، شاهداً وغائباً، ونائماً ويقظان، لا يُقَصِّرُ عن ذلك وإنْ جَفَوْهُ، ولا يَخْذُلُهم وإنْ خَذَلُوْهُ.

ورُوي أنَّ رجلاً قال لبعض الحكماء: أَوْصِني.

فقال: ازهدْ في الدُّنيا، ولا تُنَازِعْ فيها أَهْلَها، وانصحْ للّه عزّ وجلّ كُنْصح الكلب لأَهْلِه؛ فإنَّهم يُجِيعُوْنَهُ ويَضْرِبُوْنَهُ، ويأْبى إلَّا أَنْ يَحُوْطَهم نُصْحاً.

وقال الأحنف بن قيس: إذا بَصْبَصَ الكلبُ فثِقْ ببَصْبَصَتِه، ولا تثق ببَصَابِصِ النَّاسِ، فرُبَّ مُبَصْبِصٍ خَوَّانٌ.

بَصْبَصَ الكَلْبُ بذَنَبِهِ إذَا حَرَّكَهُ، وإنَّما يفعل ذلك من طَمَعٍ أَوْ خَوْف.

وقال الشَّعبيُّ: خَيْرُ خَصْلَةٍ في الكلب أَنَّهُ لا يُنَافِقُ في مَحَبَّتِه.

وقال إسحاق المَوْصِليُّ: أتيت يوماً الفَضْلَ بْنَ يحيى، فصَادَفْتُهُ يَشْرَبُ وبَيْنَ يَدَيْهِ كَلْبٌ، فقُلْتُ له: أَتُنَادِمُ كَلْباً؟!

فقال: نعم، يمنعُني أَذَاهُ، ويكفُّ عنِّي أَذَى سواه، يشكر قليلي، ويحرس مبيتي ومَقِيْلي.

وذَكَرَ بَعْضُ الرُّوَاة، قال: كان للرَّبيع بن بدر كَلْبٌ قد رَبَّاهُ، فلمّا مات الرَّبيع ودُفِنَ جَعَلَ الكَلْبُ يَتَضَرَّبُ على قبره حتّى مات. يتضرَّب: يضطرب ويتحرّك ويموج.

وقال الشّاعر:

لَكَلْبُ النَّاسِ إنْ فَكَّرْتَ فيهم
أَضَرُّ عليكَ مِنْ كَلْبِ الكِلابِ
لأَنَّ الكَلْبَ تَخْسَؤُهُ فيَخْسا
وكَلْبُ النَّاسِ يَرْبِضُ للعِتَابِ
وأَنَّ الكلبَ لايُؤْذي جَلِيْساً
وأنتَ الدَّهْرَ مِنْ ذا في عِتَابِ

خَسَأَ الكَلْبَ: زَجَرَهُ وطَرَدَهُ.

وقال الأصمعيُّ: سمعتُ بَعْضَ المُلُوْكِ وهو يركضُ خَلْفَ كَلْبٍ وقد دنا من ظَبْيٍ وهو يَقُوْلُ من الفَرَحِ: إيْهٍ، فَدَتْكَ نَفْسي!

ومَرَّ رجلٌ بمقْبَرَة، وإذا قَبْرٌ عليه قُبَّةٌ مَبْنِيَّةٌ مكتوبٌ عليها: هذا قَبْرُ الكلب، فمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ خَبَرَهُ فليَمْضِ إلى قرية كذا وكذا؛ فإنَّ فيها مَنْ يُخْبِرُ. فسأل الرَّجُلُ عن القرية، فدَلُّوْهُ عليها، فقَصَدَها، وسَأَلَ أَهْلَها، فدَلُّوْهُ على شَيْخٍ، فبَعَثَ إلَيْهِ، وأَحْضَرَهُ، وإذا شَيْخٌ جاوز المئة سنة، فسَأَلَهُ، فقال:

نعم، كان في هذه النَّاحية مَلِكٌ عظيمُ الشَّأْنِ، وكان مُوْلَعاً بالنُّزْهَة والصَّيْد والسَّفَر، وكان له كلبٌ قد رَبَّاهُ، وسمَّاه باسم لا يُفَارِقُهُ حيث كان، فإذا كان في وقت غَدَائِه وعَشَائِهِ أَطْعَمَهُ ممَّا يأكل.

فخَرَجَ يوماً إلى بعض مُتَنَزَّهَاتِه، وقال لبعض غلمانه: قُلْ للطَّبَّاخ يطبخْ لنا ثُرْدَةَ لَبَنٍ، فقد اشتهيتُها، فأَصْلَحُوها، ومضى إلى مُتَنَزَّهِه.

فوَجَّهَ الطَّبَّاخَ، فجَاءَ بلَبَنٍ، وصَنَعَ له ثُرْدَةً عَظِيْمَةً، ونَسِيَ أَنْ يُغَطِّيَهَا بشَيْءٍ، واشتغل بطبخ أشياء أُخَرَ، فخَرَجَ من بعض شقوق الحيطان أَفْعًى، فشَرِبَ من ذلك اللّبن، ومَجَّ في الثُّرْدَةِ مِنْ سُمِّهِ، والكَلْبُ رَابِضٌ يَرَى ذلك كلَّه.

ولو كان له في الأفعى حيلةٌ لَمَنَعَها، ولكن لا حيلةَ للكلب في الأفعى ولا الحَيَّة.

وكَانَ عِنْـدَ المَلِـكِ جاريةٌ خرساءُ زَمِنَـةٌ قد رأتْ ما صَنَعَ الأفعى.

ووافـى الملكُ من الصَّيْدِ في آخـرِ النَّهار، فقال: يا غلمانُ أَوَّلَ ما تُقَدِّمُوْنَ إليَّ الثُّردة.

فلمّـا وُضعتْ بين يديه أومأت الخَرْساءُ إليهم، فلم يُفهم ما تقـولُ، ونَبَحَ الكَلْبُ، وصَاحَ، فلـم يُلْتَفَتْ إليه، ولَجَّ في الصِّياح، فلم يُعْلَمْ مُرَادُهُ.

ثُـمَّ رمى إليه بمـا كان يرمي إليـه في كُلِّ يوم، فلم يَقْرَبْـهُ، ولَجَّ في الصِّياح، فقال للغلمانِ: نَحَّوْهُ عنّا، فإنَّ لَهُ قصَّةً.

ومدَّ يـده إلى اللَّبن، فلمّا رآه الكلبُ يريـد أَنْ يَأْكُلَ طَفَرَ -وَثَـبَ في ارتفاع- إلى وَسْطِ المائدة، وأَدخل فمه في القَصْعَـة، وشرب مـن اللَّبن، فسقط ميتـاً، وتناثر لَحْمُهُ، وبقي المَلِكُ مُتَعَجِّباً منه ومن فِعْلِه.

فأومأت الخَرْسَاءُ إليهم، فعرفوا مُرَادَها بما صَنَعَ الكَلْبُ.

فقـال الملكُ لندمائـه وحاشيتـه: إنَّ شيئـاً فَداني بنَفْسه لحقيقٌ بالمُكَافَأَة، وما يحملُهُ ويَدْفِنُهُ غيري.

ودَفَنَهُ بين أَبيه وأُمِّـه، وبنى عليه قُبَّةً، وكَتَبَ عليها ما قرأتَ. فهذا ما كان مِنْ خَبَرِه.

وقـال أبو الحسن المدائنيُّ: حـجَّ إياسُ بن معاوية، فسَمِـعَ نُبَاحَ كَلْبٍ، فقـال: هذا كلبٌ مشـدودٌ، ثُمَّ سَمِعَ نُباحه، فقال: قد أُرْسِلَ.

فلمّا انتهوا إلى الماءِ سألوا أَهْلَهُ، فكان كما قال.

فقيْـلَ لـه: كيف علمتَ أَنَّـهُ مُوْثَقٌ، وأَنَّـهُ قَدْ أُطلق؟ فقال: كان نُبَاحُهُ وهو مُوْثَقٌ يُسْمَعُ من مكانٍ واحد، فلمّا أُطلق سمعتُـهُ يقرب مرَّةً، ويَبْتَعِدُ أُخْرَى، ويتصرّف في ذلك!

ومَرَّ ذاتَ ليلةٍ بماءٍ، فقال: أسمع صوتَ كَلْبٍ غَرِيْب. فقيْـلَ له: كيف عرفـتَ ذلك؟ قـال: بخُضُـوْعِ صَوْتِه، وشِدَّةِ نُبَاحِ الآخر؛ فسألوا عنه، فإذا كَلْبٌ غريبٌ، وإذا الكلابُ تَنْبَحُهُ!

ومِـن ظُلْمِ كُليب وائل أَنَّهُ إذا أَتى الماءَ وقد سُبق إليه أَخَذَ الماتحَ، فألقى عليه الكلابَ حتَّى تنهشه. وكان يعمد إلى الرَّوْضة تُعْجِبُهُ فيأمر بأَنْ يُؤْخَذَ كَلْبٌ وتُشَدَّ قوائمُهُ، ويُلقى وسطها، فحيث بلغ عُواؤُه كان حِمًى لا يُرعى.

كَلْبُ اللّه: قال الجاحـظ: رُوي أَنَّ النّبيّ صلّى اللّه عليـه وسلّم قال لعُتبة بـن أَبي لهب: أَكَلَـكَ كَلْبُ اللّه، فأَكَلَهُ الأسد.

واللّه تعـالى يضاف إليه العظيم من جميع الأشياء من الخير والشّرّ، أَمَّا الخير فكقولهم: بيت اللّه، وأَهل اللّه، وزُوَّار اللّه، وخليل اللّه، وأَمَّا الشَّرّ فكقولهم: دعه في لعنة اللّه، ونار اللّه. وكلّ شيء أضافه اللّه إلى نفسه فقد عَظَّمَ شأنه، وشَدَّدَ أمره.

كَلْـبُ أصحاب الكهف: يُضْـرَبُ مثلاً لمن يُلازِمُ ولا يُفَارِقُ، قال أبو دُلامة:

إذا جـئتَ الأمـيـرَ فـقُـلْ سـلامٌ
عـلـيـك ورحـمـةُ الله الـرّحـيـم
وأَمَّـا بَـعْـدَ ذاك فـلـي غـريمٌ
مـن الأعـراب قُـبِّـحَ مـن غَـرِيْم
غـريمٌ لازمٌ بـفـنـاء داري
لـزومَ الـكَـلْـب أصـحـابَ الـرَّقِـيْـم

وقد ضَرَبَهُ دِعْبِلٌ الخُزَاعيُّ مثلاً في هجاء المعتصم لمّا كان ثامنَ خلفاء بني العَبَّاس، فقال:

مُلُوْكُ بني العَبَّاس في الكُتْبِ سَبْعَةٌ
ولَمْ تَـأْتِـنَـا في ثَـامِـنٍ لَـهُـمُ كُـتُـبُ
كذلك أَهْـلُ الكَهْف في الكَهْف سَبْعَةٌ
كِـرَامٌ إذا عُـدُّوا وثَـامِـنُـهُـمْ كَـلْـبُ

كَلْـبُ طَسْـم: يُضْرَبُ بـه المَثَلُ في مكافـأة المُحْسِن بالإساءة.

كان لطَسْم كَلْبٌ يُحْسِنُوْنَ إِلَيْه، فدَلَّ بنُبَاحِه عَدُوَّهم عليهم، حتّى استباحوهم وقتلوهم، كما فَعَلَتْ بَرَاقِشُ.

وبَرَاقِشُ كَلْبَةٌ كانت لقَوْمٍ من العرب هربُوا من عدوٍّ لهم ومعهم بَرَاقِشُ، فاتَّبع العدوُّ آثارَهم بنُبَاحِ براقش، فهجموا عليهم، فاصطلموهم، وصار قَوْلُهم: على أَهْلِها بَرَاقِشُ تجني، مثلاً، قال حمزة بن بيض الحَنَفيُّ:

لم تكنْ عن جِنَايَةٍ لَحقَتْني
لا يساري ولا يميني جَنَتْني
بَلْ جَنَاها أَخٌ عليَّ كريمٌ
وعلى أَهْلِها بَرَاقِشُ تَجْني

ويُروى في قصَّة كَلْبِ طَسْم أَنَّ رجلاً منهم ارتبط كلباً، فكان يُطْعِمُهُ ويسقيه رجاءَ أَنْ يَصِيْدَ به، فأَبْطَأَ عليه يوماً، ودَخَلَ عليه صاحبُهُ، فوَثَبَ عليه، فافترسه فصار مثلاً في كُفْرَانِ النِّعْمَة، وفيه قيل: سَمِّنْ كَلْبَك يأْكُلْكَ.

قال طَرَفَةُ بْنُ العبد:

كَكَلْبِ طَسْمٍ وقد تَرَبَّبَهُ
يَعُلُّهُ بالحليبِ في الغَلَسِ
ظَلَّ عليه يَوْماً يُفَرْفِرُهُ
إلّا يَلَغْ في الدِّمَاءِ يَنْتَهِسِ

يُفَرْفِرُهُ: يَصِيْحُ به. يَنْتَهِس: يأخذ اللَّحم بمقدّم أَسْنَانِه.

وقال مالك بن أسماء:

هُمُ سَمَّنُوا كَلْباً لِيَأْكُلَ بَعْضَهم
ولو ظَفِرُوا بالحَزْمِ لَمْ يَسْمَنِ الكَلْبُ

وقال آخر:

أَرَاني وعَوْفاً كالمُسَمِّنِ كَلْبَهُ
فخَدَّشَهُ أَنْيَابُهُ وأَظَافِرُهْ

كَلْبَةُ حَوْمَلَ: يُضْرَبُ بها المَثَلُ في الجُوْعِ، فيُقَالُ: أَجْوَعُ مِنْ كَلْبَةِ حَوْمَلَ. وحَوْمَلُ امرأةٌ من العرب كانت تربطُ كَلْبَةً لها ليلاً للحِرَاسة، وتُجِيْعُها وتطردُها في النَّهار، فرَأَتْ ليلةً القَمَرَ طالعاً، فنَبَحَتْ عليه تَظُنُّهُ رَغِيْفاً لاستدارته، ولمَّا طَالَتِ الشِّدَّةُ عليها أَكَلَتْ ذَنَبَها من شِدَّةِ الجُوْعِ؛ قال الكُميت:

كَمَا رَضِيَتْ جُوْعاً وسُوْءَ رِعَايَةٍ
لكَلْبتها في سَالِفِ الدَّهْرِ حَوْمَلُ

كِلَابُ النَّاس: هُمُ الأَنْذَالُ والسُّفَهاءُ؛ قال:

هو الكَلْبُ وابنُ الكَلْبِ والكَلْبُ جَدُّهُ
ولا خَيْرَ في كَلْبٍ تَنَاسَلَ مِنْ كَلْبِ

قيل: الغِيْبَةُ إِدَامُ كلابِ النّاس، وفاكهة الجُبَنَاء؛ قال:

لكَلْبُ الإنْسِ إِنْ فَكَّرْتَ فيْه
أَشَدُّ عليكَ مِنْ كَلْبِ الكِلَابِ

وقال منصورٌ الفقيهُ: ما الكلابُ الكلابُ، بل هُمُ النَّاس، إذا استحسنوا صنيع الكلاب كانوا شَرًّا من الكلاب!

كِلَابُ النَّار: يقال للخوارج والنَّوائح كلابُ النَّار، على ما نطقتْ به الآثار.

كَلْبُ الرُّفقة: قال هشامٌ أخو ذو الرُّمَّة: اعلمْ أَنَّ لكُلِّ رُفْقَةٍ كَلْباً يَشْرَكُهُمْ في فَضْلِ الزَّادِ، ويَهِرُّ دُوْنَهم، فإِنْ قدرتَ أَلَّا تكونَ كَلْبَ الرُّفْقَةِ فافعلْ.

والرُّفْقَةُ: الجماعة المُترافقون في السَّفَرِ. يَهِرُّ: يَنْبَحُ ويُدافع عنهم.

كَلْبُ الحارس: يُضْرَبُ مثلاً للسَّاقِطِ ينتسبُ إلى السَّاقط، فيزدادُ ضَعَةً.

قال الشّاعر:

مَنْ لَمْ يَذُقْ مُرَّ الزَّمَانِ وصَرْفِه
فليُمْسِ مُعْتَبِراً بهذا البائسِ
هذا ربيعةُ فاعرفوهُ باسمِه
كان الأميرَ فصار كَلْبَ الحَارِسِ

مَزْجَرُ الكَلْبِ: يُقَالُ: فلانٌ بمَزْجَرِ الكَلْبِ، وفي صَفِّ النِّعَالِ، إذا كان بالبُعْدِ مِنْ مجلس النَّاسِ.

قال أبو سُفيان بْنُ حَرْب:

وما زال مُهْري مَزْجَرَ الكَلْبِ منْهُمُ
لَـدُنْ غُـدْوَةً حتَّى دَنَـتْ لـغُـرُوْبِ

ويقال: الكريم في مركز القَلْـبِ، واللّئيمُ في مَزْجَرِ الكَلْبِ.

نُعَاسُ الكلب: العرب تَضْرِبُ المَثَـلَ بنُعَاسِ الكلب، قال رُؤْبَةُ:

لاقيتُ مَطْلاً كنُعَاسِ الكَلْبِ
وعِدَةً عُجْتُ عليها صَحْبي
كالشُّهْدِ بالماءِ الزُّلالِ العَذْبِ

قال الجاحظ: الكلـبُ أَيْقَظُ الحيوان عَيْناً في وَقْتِ حاجتهم إلى النَّـوْمِ، وإنَّما نَوْمُهُ نهاراً عند استغنائهم عن حراسته، ثُمَّ لا ينام إلَّا غِرَاراً وإلَّا غشاشاً.

وأغلب ما يكونُ النّومُ عليـه وأَشَدُّ ما يكونُ إسكاراً له، أَنْ يكون كما قال رُؤْبة:

لاقيتُ مَطْلاً كنُعَاسِ الكَلْبِ

يعني بذلك القَرْمَطَـةَ في المواعيد، وكذلك الكلبُ، فإنَّـهُ أَنْوَمُ ما يكـون أَنْ يفتح من عينه بقَـدْرِ ما يكفيه للحراسة، وذلك ساعةً فساعةً، وهو في هذا كُلِّه أَيْقَظُ من ذئبٍ، وأَسْمَعُ من فَرَسٍ، وأَحْذَرُ من عَقْعَق.

وفي نعاسِ الكلب نهاراً وسَهَرِهِ ليلاً يقولُ أبو أحمد النَّسفيُّ:

يَنَامُ إذا ما استيقظَ النَّاسُ للعُلا
فإنْ جَنَّ لَيْلٌ فهْو يَقْظَانُ حَارِسُ
كذلك كَلْبُ النَّاسِ يَنْعَسُ يَوْمَهُ
ويَسْهَرُ طُوْلَ اللَّيْلِ واللَّيْلُ دَامِسُ

صوف الكلب: يُضْرَبُ به المَثَـلُ في العُسْرَةِ والنَّكَدِ، كما يُقَالُ: مُخُّ الذَّرِّ، ولَبَنُ الطَّيْرِ.

ويُقَالُ: احتاج إلى الصُّوْفِ مَنْ جَزَّ كَلْبَهُ؛ قال:

مَـنْ جَـزَّ كَلْباً لِمَا في الكَلْبِ مِـنْ وَبَـرِ
أَمْسَى لعَمْرُكَ مُحْتَاجاً إلى الصُّوْفِ

رِيْحُ الكَلْبِ: يُضْرَبُ بها المَثَلُ في النَّتْنِ؛ قال:

رِيْحُها رِيْحُ كلاب هَارَشَتْ في يَوْمِ طَلّ
ولَهـا ريْـقٌ كَرِيْـهٌ مِثْـلُ صِحْنَاةِ بَخَلّ

الصِّحْنَاةُ: إِدَامٌ يُتَّخَذُ من السَّمَكِ الصِّغار.

بُخْلُ الكَلْـبِ: يُضْرَبُ مثلاً للبخيـلِ؛ لأَنَّ الكلبَ إذا نـال شيئـاً لم يَطْعَمْ منه، وإنْ رام إنسـانٌ انتزاعَ شيءٍ من يده هَرَشَهُ، قال أبو نُوَاس:

وأَبْخَلُ مِنْ كَلْبٍ عَقُوْرٍ على عَرْقِ

حِرْصُ الكَلْبِ: تقول العربُ: فلانٌ أَحْرَصُ مِنْ كَلْبٍ على جِيْفَةٍ، ومِن كَلْبٍ على عَرْقٍ.

العَرْقُ: الفِدْرَةُ من اللّحم، وجَمْعُها عُرَاقٌ.

ومِمَّا يُتَمَثَّلُ به من أخلاقه: حراسة الكلب، ولَجَاجُ الكَلْـبِ، ولُؤْمُ الكَلْـبِ، ونُبَـاحُ الكَلْبِ، وحِفَـاظُ الكَلْبِ، وإِلْفُ الكَلْبِ.

ويُقَـالُ: إنَّ الكَلْـبَ آلَفُ من الهِـرِّ، لأَنَّ الكَلْبَ يَأْلَفُ الإِنْسانَ، والهِرَّ يَأْلَفُ المكانَ.

وقال الشّاعر:

هُـوَ الـكَـلْـبُ إلَّا أَنَّ فيه مَـلَالَـةً
وسُـوْءَ مُـرَاعَاةٍ وما ذاك في الكَلْبِ

غَسْل الكلـب: يُضْرَبُ مثلاً للَّئيم يَتَّضِعُ، فلا يزدادُ إلَّا لُؤْمًا؛ قال ابنُ لَنْكَكَ:

قُـلْ للوضيعِ أَبـي رياشٍ لا تُبَلْ
تهْ كُلَّ تَيْهِكَ بالولايةِ والعَمَلْ
ما ازددتَ حِـيْنَ وَلِـيْـتَ إلَّا خِسَّـةً
كالكَلْبِ أَنْجَسَ ما يكونُ إذا اغْتَسَلْ

واقيـة الـكلاب: يُضْرَبُ مثـلاً للخَسِيْـسِ إذْ يكون مُوَقًّى؛ لأَنَّ الكَلْبَ من الحيوانات الطَّويلة الذَّماء.

يقال: إنَّ على الكلاب واقيةً من عَبَث السُّفهاء والصِّبيان بها، قال دُريد بن الصِّمَّة، حين ضَرَبَ امرأته بالسيف ولم يقتلْها:

أَقَرَّ العينَ أَنْ عُصِبَتْ يداها
وما إنْ يُعْصَبَانِ على خِضَابِ
فأَبْقَاهُنَّ أَنَّ لهنَّ جِدًّا
ووَاقِيَةً كواقِيَةِ الكِلَابِ

وقال آخر:

إنْ يَقِنَا اللهُ مِنْ شَرِّها
فإنَّ الكِلَابَ لها وَاقِيَهْ

وقال:

ولقد قَتَلْتُكَ بالهِجَاءِ فلَمْ تَمُتْ
إنَّ الكِلَابَ طويلةُ الأعمارِ

قَتِيلُ الكِلَابِ: هو مِسْمَعُ بْنُ شهاب أبو مالك بن مِسْمَع، سُمِّيَ بذلك لأَنَّهُ لجأَ في الرِّدَّة إلى قوم من بني عبد القيس، فكان كلبُهم يَنْبَحُ عليه، فخَافَ أَنْ يَدُلَّ على مكانه، فقَتَلَهُ، فقُتِلَ به.

وكان مالكُ بْنُ مِسْمَع إذا نُسِبَ قيل له: ابن قتيل الكلاب.

كَلْبُ القَصَّابِ: يُضْرَبُ مَثَلاً للفقير يُجَاوِرُ الغنيَّ، فيرى من نعيم جاره وبُؤْسِ نَفْسه، ما تَتَنَغَّصُ معه مَعِيْشَتُهُ.

والعامَّةُ تقول: كلابُ القَصَّابين أَسْرَعُ عَمًى من غَيْرِها بعشرين سنةً؛ لأَنَّها لا تزال ترى من اللُّحوم ما لا تَصِلُ إِلَيْه، فكَأَنَّ رؤيةَ ما تشتهيه ومَنْعَها منه يُوْرِثُها العمى.

المصادر:

- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب لأَبي منصورٍ الثَّعالبيِّ (ت ٤٢٩ه)، تحقيق إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، ط ١، ١٩٩٤م.
- حياة الحيوان الكُبْرَى للدَّميريّ (ت ٨٠٨هـ)، تحقيق إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، ط١، ٢٠٠٥م.
- الحيوان للجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السّلام هارون، مطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ، القاهرة، ١٩٦٥م.
- فضل الكلاب على كثيرٍ ممَّنْ لَبِسَ الثِّياب لابن المَرْزُبَانِ (ت ٣٠٩هـ)، تحقيق محمَّد عبد الله قاسم، دار البشائر، دمشق، ط١، ٢٠١٩م.

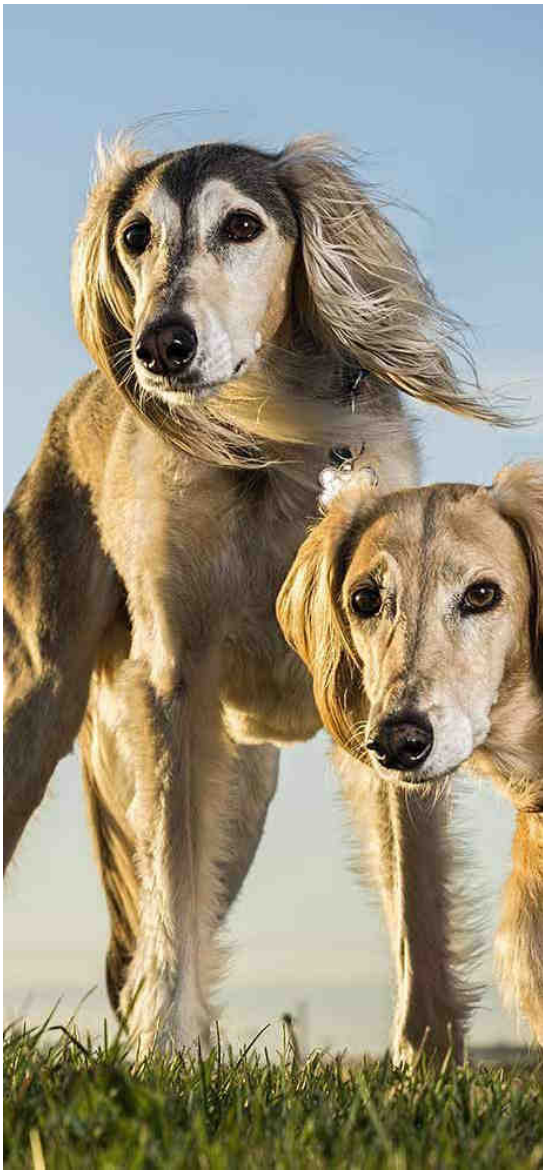

تراث الخيل في الجزيرة السورية

أحمـــــد الحســـــين

تدور مادة هذه المقالة حول تراث الخيول في الجزيرة السورية، وما يتصل بذلك من عادات واعتقادات ومعارف، وأمثال وعبارات وأقوال، تبلورت في ثقافة أهل الجزيرة خلال القرن العشرين وما قبل، إذ كانت الأنعام عامة والخيول خاصة، قوام حياة الناس، فاعتمدوا عليها في مصادر طعامهم وغذائهم، وحلّهم وترحالهم، وسفرهم وغزواتهم، فكان أن ارتبطت حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بها بشكلٍ أو بآخر.

فصيلة الخيول:

تصنف الخيول في زمرة الدّواب ذوات الحافر، قال تعالى: ﴿ **والخيل والبغال والحمير لتركبوها** وزينةً ﴾ [1]، وتضم هذه الفصيلة الأنواع والأجناس الآتية:

١- الخيول الأصيلة: وهي خيول ذات سلالة ورَسَن محفوظ، معروفة الأب والأم، والخيل لغةً «جماعة الأفراس، لا واحد له من لفظه، واحدها خائل لأنه يختال في مشيته، أي يأخذه حالٌ من الزهو والاعتداد، والجمع أخيال وخيول، والخيَّالة أصحاب الخيول»[2].

أمّـا الفرس فهي واحد الخيل، الذكر والأنثى في ذلك سواء، ولا يقال للأنثى فيه فَرَسةٌ، وأصله التأنيث، ولهذا صار في كلامهم للمؤنث أكثر منه للمذكّر[٢]، ويقال لصاحب الفرس: فارس، والجمع فرسان وفوارس، كما يقال: خيَّال وخيَّالة، بيد أنّ أهل الجزيرة لا يستخدمون لفظة فرس للدلالة المشتركة على المذكر والمؤنث، بل يستخدمونها دلالةً على الأنثى دون الذكر.

وإذا كان أهل الجزيرة خصّوا كلمة فرس للأنثى، فإنّهم خصّوا ذكر الخيل بكلمة «حصان»، وهو الفحل من الخيل، وجمعه حُصُن»، وجاء في تفسير دلالته: أنّ كلمة حصان مشتقّة من الحَصَانة، «لأنه محرز لفارسه»، كما قالوا لأنثى الخيل «حِجْر»، وهو من حجر عليه أي منعه، وقيل: سمّي الفرس حصاناً لأنه ضُنّ بمائه فلم يَنْزُ إلا على كريمة، ثم كثر ذلك حتى سمّوا كلّ ذكر من الخيل حصاناً»[٤].

٢- الخيول الهجينة: وهي جنسٌ من الخيول، نسبها غير معروف، منها:

- الكُدُش: وهي مفردة عامية، مذكرها كديش، ومؤنثها كديشة، والكديش من الخيل خلاف الجواد، وإنْ يكن أقرب ما يكون إلى الخيل الأصيلة بنيةً وقواماً، لكنه يختلف عنها في الطباع، وينتج عن تلاقحٍ بين فرس وحصان أحدهما مجهول النسب.

- الرَّهَوَان: وهو مما يصنف في جنس الخيول الهجينة، ويعد ضرباً من الخيول، سمّي بذلك لليونة ظهره وسيره السهل والسريع، والمَرْهي من الخيول: «السريع الذي تراه كأنه لا يسرع، وإذا طُلب لم يُدرك»[٥]، والرهوان يسير كدّاً بخطوات سريعة، ولا يجيد الهذب كالخيول المعروفة، ومفردة رهوان قد تكون تركية أو فارسية، ما يرجح ذلك أنّنا نجد الرهوان في المناطق الجبلية بين العشائر الكردية والتركية، وقد تكون الرهاوين مما عرف في مصادر التراث بالبراذين، وقيل: «هي التركي من الخيل وخلافها العِراب»[٦]، وقد ورد ذكر الرهاوين في فنون الأهازيج والعتابة الشعبية فقيل[٧]:

هلك بالشامْ وأهلي بالرهاوينْ
بعيدْ الدربْ ومكلفْ الرهاوينْ

٣- الحمير: يطلق على ذكرها حمار أو جحش، وأنثاها أتان أو جحشة، ومنها نوعٌ يسمّى الشهريات، يقال للذكر منها: شَهْري والأنثى شَهْرية، وتعدّ أضخم جسماً من الحمير الأهلية ذات لون أبيض، وهذه مما تستخدمه جماعات «الصلُبَة» وهم جماعات

غير معروفة النسب كانت تسكن الحماد، وتتجوّل في مناطق تدمر والبادية السورية، والشهاري قوية البنية سريعة السير، تتصف بالذكاء، وهي مما يتلاقح مع الأجناس الأخرى كالخيول وغيرها.

٤- البِغَال: مفردها بغل، ومؤنثه بغلة، وتعدّ نتاجاً مولّداً ينشأ من لقاح الخيول والحمير، إذ تكون الأم فرساً والأب حماراً، لأنها عقيمة لا تتكاثر من جنسها، ولهذا أخذت بعضاً من طبائع الخيول والحمير، بل هي أقرب لطبائع الحمير من حيث النزق والبلادة، لهذا ضربوا فيها المثل لمن يخشى من غدره ولا يؤمن جانبه، فقالوا: «هو كالبغل صكّته عند حافره».

وفي المرويّات المتداولة أنّ البغال نقلت الأخشاب التي استخدمت في حرق نبي الله إبراهيم، فعاقبها الله وقطع نسلها، فهي تتوالد من لقاح جنسين مختلفين، وقد ضرب المثل في وضاعة نسب البغل فقيل: «قالوا للبغل من هو أبوك ؟ فقال: خالي الحصان»، وهو مثلٌ تمتد جذوره في أعماق الذاكرة الشعبية ومروياتها الشفاهية، لتصل إلى تراث بلاد الرافدين وحضاراتها القديمة، إذ جاء في الأمثال والحكايات الأكادية قولهم: «أيها البغل هل سيعرفك أبوك، أو ستعرفك أمك ؟»[٨].

٥- النِّغَال: مفردها نغل، وهو جنسٌ مولّد هجين، ينتج من لقاح حصان لأتان، وهذا الصنف من الأصناف العقيمة التي لا تتكاثر من جنسها، وقيل في وضاعة نسب النغل ورداءة طبعه وضياع أصله: «هو لا بغل ولا نغل».

- مرابط الخيل:

بالرغم من أنّ الأنواع الأصيلة والهجينة تنتمي إلى أسرة واحدة، فضّلت العشائر العربية الخيول على ما سواها، ولاسيما الأصيلة منها، فحرصت أشد الحرص على حفظ أنسابها ونقاء سلالاتها، وخصّتها في المعاملة بالتكريم والإيثار، تيمّناً بالحديث النبوي: «الخيل معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[٩].

يقال لغةً «ربط الشيء ربطاً أوثقه وشدّه، والرباط جمع رُبط ومرابط»[١٠]، ويدل ذلك على المكان الذي تُربّى فيه الخيل للتكاثر والتوالد، ولهذا قيل فلان له رباطٌ من الخيل، أي موضع لربط الدواب والخيول، لتنميتها والحفاظ على سلالاتها وأرسانها.

وقد سار أهل الجزيرة على منوال أسلافهم، فاتخذوا الرباطات لتكاثر الخيول وتربيتها، واشتهرت في ذلك أسر وبيوت بين جميع عشائرها، وظل هذا التقليد شائعاً عقوداً طويلة، وإن يكن قد انحسر وتراجع إلا أنّه ما تزال بعض العشائر والأسر تحتفظ برباطات خيولها إلى اليوم، بعد أنّ طوّرت خدمات الرباط، واستفادت من الخدمات الطبية، والمرافق الخدمية، فوفرت بيئة مناسبة لتربية الخيول من حيث بناء الإسطبلات الحديثة والاهتمام بالنظافة العامة والعناية بالتغذية، وتوفير الرعاية الصحية، إذ أوكل أصحاب المرابط إلى أطباء بيطريين مهمّة الإشراف على خيولهم، حرصاً على سلامتها وتكاثرها ونمائها.

وكان من وظائف المربط الحفاظ على أرسان الخيول العربية ونقاء أنسابها، جرياً على عادة العرب قديماً، الذين أولوا أنساب الخيول اهتماماً لا يقل عن اهتمامهم بأنساب عشائرهم وقبائلهم، فقد وضعوا في ذلك المؤلفات والمصنّفات التي توثق أنساب الخيل، ومن ذلك: كتاب أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها لابن الكلبي، وكتاب أسماء خيل العرب وأنسابها للغُندجاني، فضلاً عما نجده في مؤلفات الجاحظ والدَّميريّ، ومصادر الأدب والموسوعات الأدبية التي قلما يخلو كتابٌ منها، من فصلٍ أو باب في ذكر الخيول وصفاتها وما قيل فيها من شعرٍ ونثر.

ونقف من ذلك على ما أورده ابن رشيق القيرواني «٣٩٠ – ٤٥٦ هـ»، إذ أفرد باباً من أبواب كتابه «العمدة» في ذكر عتاق الخيل ومذكوراتها، وأسماء أشهر أرسانها منسوبةً إلى قبائلها وفرسانها ومالكيها، وفصل القول في جوانب أنسابها وصفاتها،

مـورداً مـا يربـو على سبعـين فرسـاً معروفـة الأصل والنسب أماً وأباً وسلالةً[١١].

وعليـه، فـإنّ أرسـان خيـول العـرب وأنسابها في العصـور المتلاحقـة انحـدرت مـن تلـك السـلالات، وبالتأكيـد سـوف يجـد الباحـث في أصـول الخيـول وأنسابها خلطاً أو تداخلاً، يطال أرسانها كالذي نجده عنـد ذكر أصول بعض العشائر وأنسابها، لكن ذلك لا يغير مـن حقيقة أصالـة الخيول العربيـة المعروفة في الجزيـرة السوريـة، وتميزهـا من أنـواع الخيول غير الأصيلة والدواب الهجينة.

- الأرسان الأصيلة:

يرجـع نسـب خيول الجزيـرة وفق ما هـو متوارثٌ ومنقول إلى الأرسان الآتية[١٢]:

١- دَهْمَاء عامر: وهـو رسن مستقل بذاته، ليست له فروع أخرى.

٢- الكحيـلات: وأنثـاه كحيلـة، وقـد يفسر سبب تسميتـه بهـذا الاسـم إلى مـا يحيـط بحاجبـي عين الفرس من خـطٍّ أسود كأنـه الكحـل أو الإثمد، وتعد خيول هـذا الرسن من أهم الخيـول الأصيلة، ويتفرع من هـذا الرسـن ٣٣ فرعـاً، منهـا: كحيلـة العجوز، كحيلـة خلاويـه، كحيلة ابـن مزهر، كحيلـة جريبيه، كحيلـة جريشيـه، كحيلـة جعيثينيـه، كحيلـة جلفـة إسطـام البولاد، كحيلة جلفـة ضحوي، كحيلة خدليه، كحيلـة الخريص، كحيلـة حبلانيـه، كحيلـة حيثيه، كحيلة دعجانيـه، كحيلة دعجانيه كاشر، كحيلة ريشة شرعبيـه، كحيلة سعده طوقان، كحيلة طويسه، كحيلة سوطيه، كحيلة عجوز ابن جليـدان، كحيلة عرموشه، كحيلة اعشـير، كحيلة عياله، كحيلـة كروش البيضا، كحيلة ممرحيـه، كحيلة مصنّه، كحيلة نواقيه، كحيلة الواطـي، كحيلة وذنه، كحيلة الربـده، كحيلة مليحيه، كحيلة هدبة نزحي، كحيلة هذبة حلبوص.

٣- الصَّقلاويات: ويطلـق علـى مذكرها صقلاوي بلفظ قافها جيماً مصرية، وقد ترجع دلالة اسمها إلى

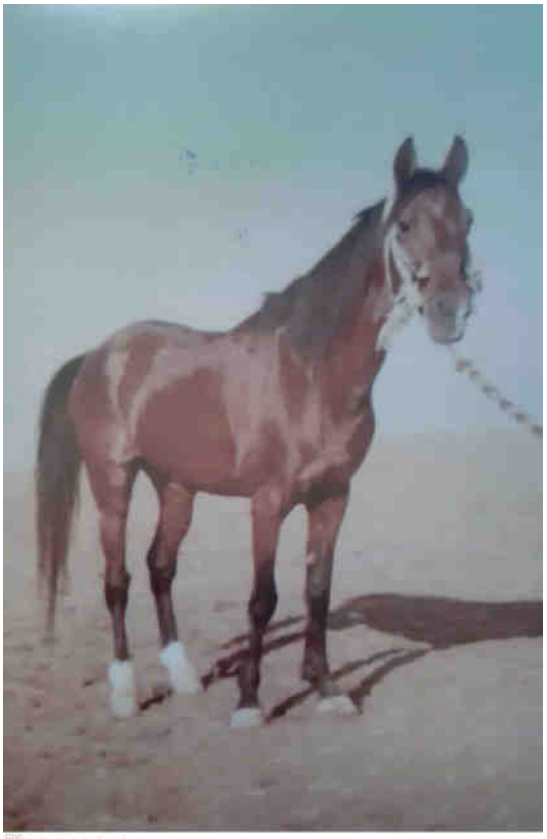

صقل جلودها وصفاء ألوانها، وبريق شعرها، وتنحدر مـن رسـن الصقلاويـات الفـروع الآتيـة: صقلاويـة جدرانية، صقلاويـة جدراينة ابن عامـود، صقلاوية مرزقانيـة، صقلاويـة أوبريـة، صقلاويـة إشعيفيـة، صقلاوية ابن بصرى.

٤- العُبيّـات: ومفردهـا عُبيّـة، وهـذا الرسن من الخيـول المؤصّلـة التي يرجـع نسبهـا إلى العَبَـاءة أو العبايـة، «وهي فرس حريّ بن ضَمْـرة النّهشليّ الذي دعـي بفارس العَبَايـة»[١٣]، وفي الموروثـات الشفاهية يروى أنّهـا لقبت بذلك لأنها رفعـت ذنبها، فحافظت علـى عباءة فارسهـا من السقوط، وينحـدر من رسن العبيّات الفروع الآتية: العبيّة الشرّاكية، عبيّة سحيلية، عبيّة أم جريس، عبيّة ابن سهيان، عبيّة العفاري.

٥- المَعْنقيات: وتنحدر منها الفروع الآتية: معنقية حَدْرجية، معنقيـة سبيلية، معنقية سبيلية أبو سيفين، معنقية الأقرع، معنقية طربوش.

٦- الحَمْدانيات: ومفرد مؤنثها حمدانية، تنسب إلى خيول بني حمدان، وهم قومٌ من تغلب، ومن ثم يرجح أنّ هذه السلالة تعود إلى خيول تلك القبيلة التي سكنت الجزيرة وحوض الفرات في العصور الوسطى، وتتحدر من رسن الحمدانيات الفروع الآتية: حمدانية ابن غراب، حمدانية سمرّيه، حمدانية العفري.

٧- الشُّويمات: ويطلقون على مؤنثها شويمة، ومن فروعها: شويمة سباح.

والواقع أنّ هذا العدد من الأرسان الذي قد يقل أو يزيد، هو نتاج طبيعي ينشأ من ظهور أرسان جديدة استقلت بذاتها مع مرور الزمن عن أصولها البعيدة، كالذي يحدث في كثيرٍ من أصول العشائر واختلاط أنسابها القديمة والحديثة، ما يؤكد أنّ الأرسان الأصيلة في الجزيرة السورية نتجت عن تلاقح الأرسان السابقة، ما أدى إلى ظهور سلالات وتسميات جديدة، إذا ما أخذنا بالحسبان أنّ المهر الذي يولد ينسب إلى أمه وليس إلى أبيه.

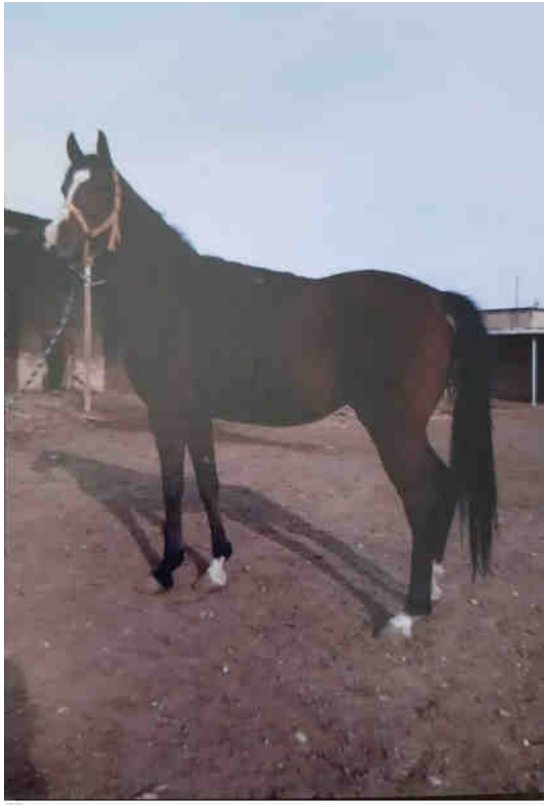

ـ تكاثر الخيول:

تصبح المهرة ناضجة للتلقيح والإنجاب بعد سن الثالثة، ويطلق أهل البادية السورية على عملية تلقيح الخيول اسم «التشبية»، فإن حان هذا الوقت تظهر المهرة أو الفرس بعض الحركات الجسدية والصوتية، فيعرفون أنها تطلب الفحل، وتدعى الفرس في هذا الطور «عاطفاً» وهو المصطلح المحلي الدارج في مقابلته مصطلح «الوِداق» كما ذكرته العرب قديماً، وجاء في تعريفه: «الوداق: هو حرص الفرس على طلب الفحل، ويشمل ذلك ذوات الحافر كلها»[١٤]، وليس لوداق الفرس شهر معين أو فصل محدد، كما نجد لدى بعض الحيوانات والدواب الأخرى.

ولأهمية نجاح اللقاح بين وفرس وحصان يتم التأكّد أولاً من أصل الحصان ونسبه ورسنه، ويحضر عملية اللقاح أكثر من شخص للمساعدة في إنجاحها وليكونوا شهوداً عليها، إذ تربط الفرس بحبل في رقبتها، ويسند صدرها عدة رجال لضمان ثباتها في المكان، وقبل اللقاح يقوم خادم بغسل جُردان الحصان أي «ذكره» للنظافة والوقاية من الأوساخ وتسهيل عملية التلقيح وسلامة الفرس، وقد جاء في أمثالهم «مثل غسّال جُردان الحصان» يضربونه مثلاً للشخص الذي يتلوث بعمل لا يعود عليه بالنفع بل لغيره.

وكان من عادتهم أنّ يتم اللقاح في مكان مستور غير مكشوف كيلا يكون ذلك مثاراً للفرجة والمشاهدة من عامة الناس، احتراماً لخصوصية الفرس ومكانتها، التي تختلف عن باقي الدواب والحيوانات الأخرى.

ومن المتعارف عليه أنّ عملية التلقيح تكتمل في نهزتين أو نزوتين يعتلي بهما الحصان ظهر الأنثى، تسمى النزوة الأولى «نطّة»، فإذا نزل أعقبها بعد قليل بنزوة أخرى يسمونها «خَصْمَة» وبذلك تتم عملية اللقاح، ومن أقوالهم في ذلك «اللقاح نطّة وخصمة»،

ولعل ذلك من خصم العِدْل أي امتلاؤه ، والعِدْل وعاء من صوف تحفظ فيه الحبوب.

وكان الشائع في هذا الجانب أن يذهب مالك الفرس بمهرته إلى صاحب حصان مشهور ليحصل على اللقاح المطلوب، وفي حالات أخرى يعير مالك الحصان حصانه إلى جماعة أو عشيرة لتلقيح خيولها، وفي أغلب الأحيان لا ينال مالك الحصان أجراً لقاء ذلك، ولكن قد يتلقى من يتولى ذلك بعض الهدايا والإكراميات التي يسمونها «شَرْهة».

وتسمّى الفرس إذا بدت على بطنها علامات الحَمْل في الثقافة الشعبية الدارجة «لَقحَة» وذاك من اللقاح، وهو مصطلحٌ يضارع ما كانت العرب تسميه «العقوق»، الذي يشمل ذوات الحافر، إذ كانوا يقولون «أظهرت الأتان أو الفرس عقوقاً إذا تبيّن حملها»[١٥]، ومدّة حمل الفرس أحد عشر شهراً تزيد أو تنقص أياماً، فإنّ وضعت قالوا: «ولدتْ وجابتْ»، وكانت العرب تقول قديماً «أنتجت»[١٦]، ويطلق على المولود منذ ولادته إلى فطامه اسم «فلو» للمذكر و«فلوة» للمؤنث، فإن فطما أو تجاوزا سنة من عمرهما سموا الفلو مهراً والفلوة مهرةً، فإن بلغا طور النضج والتوالد دعوا المهر حصاناً والمهرة فرساً، ونجد في مصادر التراث القديمة إضافات أخرى تتعلق باسم نتاج الخيول حسب عمره وجنسه[١٧]، لكنّها اندثرت وغابت عن الذاكرة الشعبية في وقتنا الراهن.

ـ تعسيف المهور:

يحيل مفهوم التعسيف في ذهنية أهل الجزيرة إلى معنى الترويض والتدريب على السير والركوب وتعلم أنواع الجري والعدو، كالكدّ وهو سير حثيث والهَنجلة وهي عَدو خفيف ثمّ الهَذب والهَذبَة وهي الجري السريع ، إذ تكون المهور في هذا الطور من عمرها شديدة الحذر والنفور، لا تقبل أن يدنو منها أحد أو يعتلي ظهورها، أو يضع اللجام في فمها، ولهذا فإن عملية التعسيف تتطلب خبرة، وتتم على مراحل تبدأ بمحاولات المُعسّف بالاقتراب من المهر ولمسه بيده

ومناداتـه باسمه، ثم محاولة رمـي بساط على ظهره، أو وضـع حبل على عنقه، وخلال ذلك يقدم له بيده أو بوعاء صغير بعض أنواع العلف، ليأنس به فيعتاد عليه ويطاوعه في امتطاء صهوته واعتلاء ظهره.

والسائـس الخبير لا يُقـدم على هذه الخطوة حتى يتحقـق من اكتمال نموّ فقـرات ظهر المهر وقوة عظام يديه ورجليه، كيلا يشوه وزنه أعضاء المهر، فينخسف عمـوده الفقـري ويتقوّس وعندئـذ يقال فيـه: «مهر أسرج، ومهـرة سرجاء»، أو أن تعـوجّ قوائمه الأمامية فيسمّى «أفحج»، وهذا ما يعيب مظهر الخيل، وفي ذلك قيـل: «إنّ الأعوج وهـو أحد أفراس العـرب المشهورة، كان لكنـدة، ثم أخذته سليم، ثم صـار لبني عامر ثم صار لبني هلال، ولقب بذلك لأنه ركب رطباً فاعوجّت قوائمه»[١٨]، ومن نتائج سوء التعسيف أنّ تدلي الفرس برأسهـا نحو الأسفـل عند سيرها وجريهـا، ويسمون ذلك «الدنّة»، ويكره ذلـك في الفرس، إذ يريدونها أن تكون مرفوعة الرأس والعنق عند الجري.

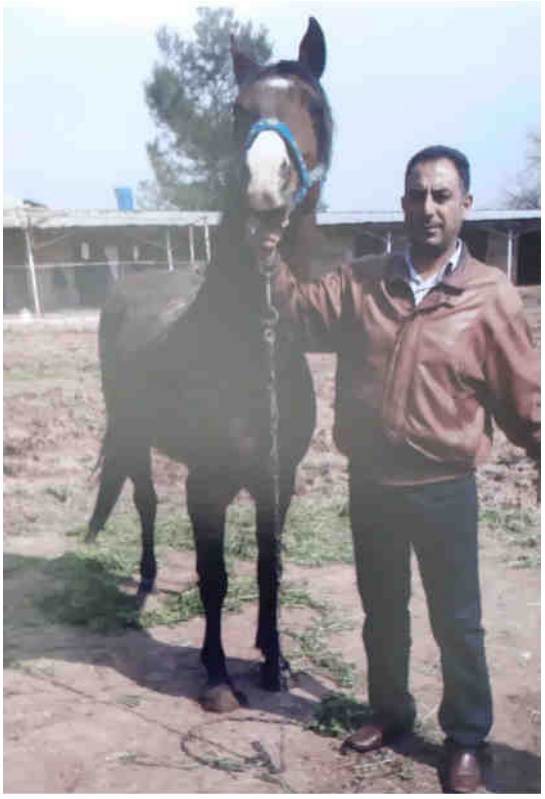

- ألوان الخيول:

تضفـي ألـوان الخيول جمـالاً عليها يسـرّ الناظر ويبهـج نفسـه، ويزيـد مـن قيمـة الفرس عنـد البيع والشـراء، ويـروى أنّ رجلاً جـاء إلى النبي صلى الله عليـه وسلم فقال: «إنّي أريد أن أعدّ فرساً. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فاشتره إذن أدهم، أو كُميتاً أقرح، أرثم، أو مُحجّلاً مُطلق اليمين»[١٩].

وكان الثعالبي قد جمع أسماء خيول العرب بحسب ألوانهـا، وانتشـار البياض فيها واختلافـه، فذكر من ذلـك مـا يصـل إلى ٦٠ اسماً أو صفـة[٢٠]، ويعكس ذلك الدقـة التي عُرف بها العـرب، ومدى اهتمامهم وتمييزهـم بين فرسٍ وأخرى علـى أساس لونها، وهي دقةٌ تعكس حرصهـم، قد لا نجد مثيلاً لها لدى الأمم الأخرى بالتأكيد.

والواقع أنّ عشائر الجزيـرة حافظت على موروث أسماء الخيول وصفاتها، وفق ألوانها، لكنها مالت إلى الإيجـاز والاختصار، واقتصرت من ذلك على الألوان الآتية:

١- فرسٌ دهماء وحصانٌ أدهـم، إذا كان لونهما أسـود، وكانوا يحذفون الهمزة للتخفيف فيقال للأنثى فرسٌ دهمـا، وهـذا الصفة ممـا ذكرتهـا العرب في ثقافتهـا وأدبياتهـا، ومـن أشهر ذلـك حصان عنترة المسمّـى «الأدهـم»، وممـا توسعـوا فيـه أنّ الفرس الدهمـاء إن ظهـر علـى جلدهـا نقاط بيض سموها «رَبْـداء»، فيقولـون في وصفهـا عندئذٍ: فرسٌ دَهْماء رَبْداء، ومن أقوالهم:

«يـا خيـال الدهمـا أشـ عنـدك للفحمـه»، فـإن قـال: الماء، وجب عليهـم سقاية الطفـل الذي يصاب بالفحمة، وهـي انقطاع النفس عند البـكاء، ليستعيد شهيقـه وتنفسـه، وهـذا مـن اعتقاداتهـم الشعبيـة الموروثة.

٢- فرسٌ حمـراء ويلفظونها بتخفيف الهمز حمرا وحصانٌ أحمر، ويطابق ذلـك ما عرفته العرب باسم

الفرس الكميت، وقالوا في وصفه: هو ما شاب سواد لونه حمرة، والكميت هو لون السكب،» وهو أول فرس ملكه الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ كان كميتاً أغر محجّلاً» [٢١]، وقد أوردت الأهازيج الشعبية ونصوص النعي والندب في تراث الجزيرة لون الحُمرة في وصف خيولها، ومن ذلك قول النادبة ترثي فارساً قتيلاً:

شدّولهْ على الحمرا الركبها

إجلالْ الجوخْ ضافي لي كعبها

الحمرا بعدْ صالحْ منْ ركبها

ركبتها أصغارٍ ما تعرفْ الكارْ

٣- فرسٌ شقراء بالتخفيف وحصانٌ أشقر، وهو ما كان لونهما يجمع بين البني الفاتح والبرتقالي، والخيل الشقر مما تفاءلت بها العرب، فكانت ترتاح لرؤيتها، ومن خيول العرب التي عرفت بهذه الصفة: الشقراء فرس زهير بن جَذيمة العبسي، والشقراء فرس أُسيد بن حَناءة السُّليطي [٢٢].

٤- فرسٌ شعلاء ويلفظونها شعلا وحصانٌ أشعل، وهو ما كان لونهما بين البياض والسواد، أو بين البياض والزرقة، وقد يطلق عليها اسم الزرقا، إذا كان البياض غالباً على السواد.

٥- فرسٌ صهبَاء ويلفظونها صهبا وحصانٌ أصهب، وهو ضربٌ من الخيول يميل لونها إلى الشُّقرة، ويخالط بياض شعرها حمرة أو صفرة، وكان منها صُهَبَا فرس النمر بن تَوْلب، وتعد من كرائم خيول العرب وعتاقها الأصيلة [٢٤].

٦- فرسٌ غراء وحصانٌ أغر، وتطلق على الفرس والحصان إذا كان لهما دائرة بيضاء في أعلى الجبهة، يسمونها نجمة، فإن كانت صغيرة سموها قرحة، فإن أحاط البياض بمشفر الفرس أو أنفه سموها رثمة، فإنْ امتدت على طول جبهة الفرس، ودقت سموها سيالة.

٧- فرسٌ بلقاء وحصانٌ أبلق، وهو ما كان لونهما أبيض خالصاً، أو ما زاد فيه لون البياض وغلب على ما سواه.

٨- فرسٌ حجلاء تلفظ بالتخفيف وحصانٌ أحجل، وهما من الخيل التي يظهر على جلدها وقوائمها اللون الأبيض، بأحجام وأشكال مختلفة، وقد تعددت الأسماء التي تطلق على الخيول المحجّلة، كما ترد في مصادر التراث القديمة، لكن أهل الجزيرة اكتفوا من ذلك بصفة أحجل وحجلاء، وكانوا يفضلون الفرس إنْ كانت محجّلة الثلاث مطلقة اليمين، وذاك ما كانت العرب تسميه قديماً الشكال [٢٥].

وقد اختصرت دائرة الخيول العربية الألوان السابقة وحصرتها في أربعة ألوان، هي: الأدهم، الأزرق، الأحمر، الأشقر.

- أصوات الخيول:

ومما يميز الخيول على الدواب الأخرى عذوبة صوتها الذي تعبّر به عن مشاعر نفسية كالشعور بالأُنس والابتهاج، أو الخوف والقلق، أو تدلّ به على حاجات ونوازع جسدية كالعطش والجوع، وهذه الأصوات يدركها أهل البادية بخبرتهم العملية وتجربتهم الحياتية، ويدركون مدلولها وتنوعها، فقسموها إلى: الصّهيل والحَمْحَمَة، والرهيم.

- فالصهَال والصهيل: صوت الفرس على الإطلاق، يقال: «تصاهلت الخيول، إذا صهل بعضها إلى بعض، ولهذا يقال للفرس الصاهل، والصهيل حدّة الصوت مع بحح، وفرس صهال،أي كثير الصهيل»[٢٦]، وقد عُرفتْ بعض جياد العرب بعذوبة صهيلها وتناغم مقاطعه، فشبهوه بإيقاع شعر الرجز، ومن ذلك: المرتجز، وهو من خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم، سمّي بذلك لحسن صهيله[٢٧].

وتصهل الخيل عادةً إذا تزاحمت في الميدان، أو أقبلت في غارة، أو إذا تعرّضت لخطرٍ ما، فيكون صهيلها إشارة تحذير وتنبيه، وصهيل الخيل في الغزوات والغارات يثير الخوف والفزع في نفوس الأعداء، ويُحدث،إذا أقبلت في مناسبات السباق والطراد، النشوة والسرور، وصهيل الخيل بشكلٍ عام مما تأنس به النفوس وتصغي إليه الآذان، على نقيض نهيق الحمير الذي يتشاءم منه من يسمعه، ويتطيّر اعتقاداً أنّ الحمار لا ينهق إلا إذا رأى الشيطان، لذلك يزجرونه وينهرونه ليسكت ويصمت، ويسمّون نهيقه في عامية الجزيرة «زريعاً»، فيقال زرَّع الحمار إذا نهق بصوت عالٍ.

- الرّهيم: وهو صوتٌ خافت يدلّ على الرّقة والحنوّ، كأنه مشتقٌّ من الرّهَمة: وهي المطر الخفيف[٢٨]، وهذا الصوت يكاد يخرج من حلق الفرس وخياشيمها، فليس له شدة الصهيل وقوته، وغالباً ما ترهم الفرس إذا أقبل نحوها فارسها، أو إن شعرت بجوعٍ وعطش، وقدم لها صاحبها العلف والماء، فيكون رهيمها كالشكر له.

- الحَمْحَمَة: وهي صوتٌ مبهم تطلقه الخيول في مواقف مختلفة، ويعد أعلى من الرهيم ودون الصهيل، وسمّي حمحمةً لأنه يصدر كصوت الحاء في تكرار مقاطعه، والحمحمة صوتٌ مخنوق يظل خفيضاً في جوف الفرس، يصدر عن الشكوى والألم، وفي ذلك قال عنترة يصف حصانه الأدهم [٢٩]:

يدعونَ عنترَ والرماحُ كأنها
أشطانُ بئرٍ في لَبَانِ الأدهمِ
ما زلْتُ أرميهم بثغرة نحره
ولَبانه حتى تسربلَ بالدّمِ
فازورَّ من وقْعِ القَنَا بلبانه
وشكا إليّ بعَبْرةٍ وتَحَمْحُمِ

- عدّة الخيل:

تحتاج عملية ركوب الخيل وقيادتها وتزيينها إلى بعض المعدات والمستلزمات الأساسية التي يتم تأمين معظمها من أسواق المدن، فضلاً عمّا تنتجه البيئة الريفية في الجزيرة السورية، ومن تلك المعدات واللوازم:

١- السرج أو الحَمَل: ويوضع على ظهور الدواب عند امتطائها وركوبها، ويطلق عليه أهل الجزيرة اسم «معرقة» بلفظ القاف جيماً مصرية، توضع على ظهر الجواد،وتشد على بطنه شداً محكماً بسيرين من جلد كالحزام، أو بحبلين من غزول الصوف.

وتصنع المعرقة محلياً أو تشترى من أسواق المدن، وهي كالوسادة تحشى بالصوف، وتكسى بقماش المخمل أو السجاد، ويكون وسطها مخطوفاً وجانباها عاليين، ولها طبقة سفلى من اللباد وتزين بالنقوش.

ولا غنى عن المعرقة في ركوب الخيل، إذ يصعب على الفارس أن يثبت على ظهر الفرس، ويطيل مدة الركوب من دونها، كيلا يصاب عصعصه بالدبر، وكانوا يطلقون على ركوب الخيل من دون معرقة

مَلطاً، ويضرب بـه المثـل في الاندفاع والتهـور وعدم تقدير عواقب الأمور، فيقال: «فلان راكبها ملط».

٢- الشّسْـع أو الحمّـالات: قطعتـان مـن معـدن، تتدليـان من المعرقة على جانبي بطن الفرس، يستعين بهما الخيال على امتطاء صهوة فرسه، إذ يضع إحدى قدميـه في عـروة الشسـع ويمسـك باللجـام ومعرفة الفرس بيد، ثـم يثـب إلى الأعلى بجسمـه، ويسمون هـذه الحركة لواحاً، فيقال: لوّح على ظهرها، إذا قفز واستوى جسمه على ظهرها.

ويطلـق أهـل الجزيـرة علـى الشسـع مصطلـح العَرْقايـة، بلفـظ القـاف جيمـاً، ويـدل معنـاه علـى الاستعانة به للصعـود، وللشسع فائدة أخرى،ذلك أنّ الفارس عند عدو فرسه يضع رجليه في عروتي الشسع مـن الجانبـين، مـا يساعد علـى ثبات جسمـه وعدم سقوطه على الأرض.

٣- اللّجَـام: ويتكون مـن أكثر من قطعة، مترابطة فيمـا بينها بسيـور وحلقات، منها: مـا يكون بين فكي الفرس، ويسمى اللجام، من قولهم: «ألجم الدّابة إذا ألبسهـا اللجـام»[٣٠]، وتتصل هذه القطعـة بالرّشْمة: وهـي حبـلٌ أو زَرَد من معـدن على شـكل حلقة يحيط بخطم الفرس، ويدعونه بالشكيمة أيضاً، وهذه تتصل بحلقة أكبر تحيط بعذار الفرس من جانبي الرأس إلى مـا وراء الأذنين، وتتخذ من الصـوف المنسوج بعرض ٣ سـم تقريباً، وتزيّـن بقواقع الوَدْع وخـرز الخِضْرم الأزرق، ثـم إنّ اللجام والرشمة يتصـلان بالرسن أو ما يقال له العنـان، وهو حبلٌ طويل يمسك به الفارس عنـد امتطـاء صهـوة فرسـه، ومـن أقوالهـم: «عِنْها وغِيْر» يضرب مثلاً في الخصومة والتحدي، وتعد هذه المكونات من حيث الوظيفـة والغرض المقود والفرامل والمكابح في السيارة الميكانيكية، إذ بها يتمكن الفارس من إيقاف عـدو فرسه أو توجيـه حركتها نحو اليمين أو الشمال، ويتم تدريـب الفرس على الاستجابة لهذه الحركات وفهم المقصود بها خلال مرحلة التعسيف.

٤- حَدِيـد الفرس: وهو الاسم الـدارج عوضاً عن القيد والأغلال، التي تقيد بها يد الفرس حرصاً عليها من السرقة أو الابتعاد عن بيوت الحي.

ويتكوّن حديد الفرس من حلقتين متصلتين بسلسلة معدنية تسمح للفرس بالمشي دون الجري والعدو، ولإحدى حلقتي الحديد قفل ومفتاح، وكان من عادتهم أنّ يتم تحديد الفرس في الليل، خوفاً عليها من اللصوص كما أشرنا، وكذلك عند إطلاقها في المراعي القريبة، وإلى جانب الحديد الذي تقيد به يدا الفرس، كانوا يستخدمون طريقةً أخرى عند رعي الخيل وانطلاقها في العُذرة يسمونها الشّكَار، وذلك بأنّ تربط يد الفرس برسنها، فلا تقوى على العدو والجري.

- زينة الخيول:

من مظاهر اهتمام أهل الجزيرة بخيولهم وتكريمهم إيّاها حرصهم على مظاهر زينتها، ولاسيما في الاحتفالات، ومواسم الاستعراض والاستقبال، وتشمل زينة الفرس معظم أجزاء جسدها، وتتمثل بالآتي:

١. زينة الرأس: وتتكون من قَوَاقع الوَدْع الأبيض، والخرز الأزرق التي تحيط بعذار الفرس، وكان بعض الأثرياء وشيوخ العشائر يزيّنون عذار خيولهم بقطع الفضة والمشغولات الفضية، تمييزاً لها عن خيول عامة الناس وأفراد العشيرة.

٢. زينة الصدر: يسمّونها «صِدَار الفرس» وتتخذ من سيور جلدية تحيط بعنق الفرس وتغطي صدرها منسدلة إلى ما فوق الركبة، وقد تتخذ من وشاح صوفي ملوّن مغزول على شكل رداء أو صدرية، لها أهداب مجدولة تنتهي بكرات من الخيوط الملوّنة يسمونها «الشَرَاشيب» مفردها شُرشُبة تتحرك عند سير الفرس وجريها.

٣. زينة الأجناب: وهي خرج من صوف منسوج يسمّونه «المعانق»، له جيبان من يمين وشمال، ينتهي كل منهما بحبال صوفية تصدر عنها شراشيب صوف ملوّنة.

٤. زينة الظهر والعجز: وتسمّى «المِرْشَحَة»، وهي رداء من قماش الجوخ أو المخمل أو قطع السجاد، يغطي جزءاً من ظهر الفرس وعجزها، ويسمّونها أيضاً «جُلالاً»، ينسدل إلى ما فوق عرقوبي الرجلين، وكان الأغنياء وكبار القوم يتباهون في نوع هذا الرداء وغلاء ثمنه، ولكن الحسّ الشعبي، كان يعطي القيمة للفرس وليس لجلالها وغطاء ظهرها، فقالوا: «الأصيل ما يعيبو جُلالو» أي لا يحط من شأنه ومكانته.

- تَملُّك الخيول:

كان أفراد العشائر يحصلون على الخيول، ويتملّكونها بطرق مختلفة، مشروعة وغير مشروعة، فالطرق المشروعة تكون بالوراثة أو الشراكة أو الشراء، حيث تتم تربية الخيول وتنميتها، وتوالدها في مرابط وحظائر، وهذا هو النمط السائد والشائع، ولا خلاف عليه.

وهنالك طرق شبه مشروعة بحكم الأعراف والتقاليد السائدة بين العشائر، و لاسيما في حالات الغزو والحروب، فقد يتملك المحاربون خيولاً يغنمونها من خصومهم وأعدائهم، وذلك بطريقتين، تسمّى إحداهما: القَلَاعة، والأخرى: المَنْع.

أما القلاعة فتعني: الاقتلاع، أي النزع، واقتلاع الشيء نزعه، ويكون ذلك عندما يردي فارس خصمه فيطعنه أو يقتله، فيقع من على ظهر فرسه، وعندئذٍ يمسك القاتل برسن فرس خصمه، ويقودها غنيمةً، تكون موضع فخر له ومدح، ولا ينكر عليه ذلك في أعراف العشائر وتقاليدها آنذاك.

أما المنع فيقع أيضاً في الغزوات والمجابهات بين العشائر، وذلك عندما تصل المعركة إلى نهاياتها وخواتيمها، وتتبيّن مظاهر الانتصار والهزيمة، فيلحق المنتصرون بالمهزومين وهم يصيحون في الواحد منهم: «امنع..امنع»، أي امنع على رقبتك من القتل، ويقصد بذلك أنْ يتخلّى المهزوم عن فرسه، ويعطي رسنها للمنتصر، فيعفّ عنه ولا يقتله، وهذا مما تقرّه أحكام العشائر وتقاليدها في ذاك الزمان.

أما طرق التملّك غير المشروعة، فلها أساليب عديدة، تقوم على التدليس والخداع، والاحتيال، وتندرج في سياقين اثنين:

- السَّرقة: ذلك عندما يتسلّل اللص ليلاً على مربط فرس، فيفكّ حديد قدميها، ويهرب بها، فلا يُعرف اسمه ولا هويته، فهذا مما يعدّ في السرقة، وكان يطلق على لصوص الخيل مصطلح حرامية الخيل، وغالباً ما كانوا من قبائل أخرى غير قبيلة الفرس المسروقة، أو من ديرة بعيدة، وكان حرامية الخيل يحملون حلقات من أنواع المفاتيح التي تفكّ بها قيود الخيل، وكان من عادة العشائر إذا تم اكتشاف أمر هذا الحرامي، والقبض عليه، أنّ يهان ويضرب ويسجن أسيراً بقيد الفرس إلى أنّ تتم تسوية وضعه وفق الأعراف والتقاليد السائدة.

- أما البَطح: فهو طريقة أخرى لسرقة الخيول وخطفها، ولكن ذلك يقع في وضح النهار، إذ ينتهز اللص فرصةً أو غفلة، فيمتطي ظهر فرس، ويهرب بها أمام أنظار أصحابها وأفراد عشيرتها، الذين يلاحقونه ويطاردونه، فيقال عن هذه الواقعة: بطح فرس فلان من مربطها أو من معذارها، أي مكان رعيها في الأراضي القريبة.

وكان من عادة أفراد العشائر الذين تسرق خيولهم، البحث عنها، وتقصّي أخبارها، وقد يستغرق ذلك منهم سنين طويلة، فإذا ما سمع عن وجودها في مكانٍ ما، ذهب إلى هناك وعاين الفرس بشكل غير مباشر، فإن أيقن أنّها فرسه، واستدلّ عليها بعلامات وبراهين، طالب بها، أمام شيخ العشيرة أو قضاة الخيول، وجاز له أنّ يسترجعها، وله الحق فيما أنتجته خلال سنوات سرقتها، ويسوّى ذلك وفق نواظم وشروط التحكيم والتسويات القبلية آنذاك، ولهم في ذلك قصص وحكايات ومواقف كثيرة جداً.

- بيع الخيول:

يعد الاتجار بالخيول وبيعها إلى جانب كونها وسيلةً للنقل والركوب، أحد مصادر النشاط الاقتصادي لأهل البوادي والأرياف، وقد جاء في الحديث النبوي ما يؤكد هذه الأهمية، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عليكم بإناث الخيل، فإنّ ظهورها حرز، وبطونها كنز» [٣١]، وقد اشتهرت الجزيرة السورية منذ أقدم الأزمنة بما تصدّره للأقاليم المجاورة من منتجات زراعية وغذائية ومعدنية، وحيوانية، وعلى رأسها الخيول،حتى قيل فيها «إنّها كانت منبع الخيول الأصيلة» [٣٢].

بيد أنّ بيع الخيول يعد من أكثر البيوع تحرّزاً واختلافاً عن بيع الأنعام والدواب الأخرى كالإبل والمواشي والأبقار، لما له من شروط تختلف من بيئة بدوية لأخرى، وقد عرف نظام بيع الخيول في الجزيرة نوعين اثنين هما: البيع المطلق و البيع المشروط أو ما يعرف بالشراكة، وكان أهل البادية يرغبون في هذا النوع من البيع، لأنه يشكل مصدر دخل متجدّد لهم، عدا عن أنه يحافظ على سلالات خيولهم وتجديد مرابطهم.

- فالبيع المطلق هو بيعٌ يحوز فيه المشتري ملكية رقبة الفرس، ويعد بيعاً منجزاً باتاً، تنقطع فيه علاقة المالك الأساسي بالفرس، وغالباً ما يكون هذا البيع هو السائد عند بيعها لتجّار الخيول الذين يقدمون من المدن والأقاليم الأخرى، بالرغم من أنّ هذا البيع لا يعد بيعاً مرغوباً فيه، لانقطاع صلة المنفعة بين المالك الأصلي وفرسه، ويسمّون هذا النوع من البيوع بيع بطن وظهر، أو بيعة مقلفعة.

- أما البيع المشروط أو بيع الشراكة، فهو أكثر أنواع البيوع شيوعاً بين أفراد العشائر، وبيئاتها المحلية، وله أشكال وأنواع نذكر منها:

١- بيع البطن: وهو أنْ يشتري شخصٌ فرساً وهي في طور الحَمْل والعَقُوق، مع اشتراط تحديد جنس المولود أو عدم الاشتراط حسب الاتفاق، وعندئذٍ يأخذ المشتري الفرس وتصبح في حوزته إلى حين نتاجها وولادتها، فإنْ كان المولود كما جرى الاتفاق على جنسه،بقيت لديه الفرس سنةً لرضاعة فلوها، ثم تعاد لمالكها، ويظل المولود للمشتري، وإنْ كانت خلاف ذلك أعادها للمالك وانتظر دورة حملٍ أخرى لها.

٢- بيع المثاني: وفي هذا النمط من البيع يتّفق البائع أي المالك والمشتري، أنْ تكون البطن الأولى للبائع، والبطن الثانية للمشتري، والبطن الثالثة للبائع، وعندئذٍ تنتهي الشراكة وتفكّ بعودة الفرس إلى مالكها.

٣- بيع النصف: أي المناصفة، ويقضي بأنْ يعطي مالك الفرس فرسه لشريك له، فيتكفل هذا بنفقات علفها ورعايتها، فإذا أنتجت مهرةً، يتم فكاك الفرس بعد ٣ أو ٤ أشهر من ولادة المهرة، وذلك بأنْ توضع الفرس في حصة أو ما يسمّونه كومةً، والمهرة المولودة ومبلغ مالي يتفق عليه يدفعه من تكون الفرس حصته بعد المقاسمة، وتعد هذه كومةً ثانية، وعندئذٍ يعطى الخيار بين الكومين للشريك، وليس لمالك الفرس، فيأخذ الشريك إما الفرس، وإما المهرة والمبلغ المضاف إليها، وبذلك تنتهي الشراكة وتفك بينهما.

٤- بيع الرِّجل: وفيه يعطي مالك الفرس للشريك ما يسمّى رجل الفرس أي الربع، فإنْ ولدت مهرةً تعطى للمالك، ثم تصبح ملكية الفرس مناصفةً بين المالك والشريك، فإن أنتجت الفرس مهرةً ثانية، أخذها الشريك وتعود الفرس لمالكها الأصلي.

٥- بيع الحصان: وبالتأكيد فإنّ بيوع الشراكات السابقة، تسري على إناث الخيل، وليس على ذكورها، التي تباع بيعاً نهائياً أو ما يعرف ببيعة مقلفعة، ولكن قد يحدث في بعض الحالات أنْ يعطي مالك الحصان حصانه لشريك دون ثمن، على أنْ يتكفّل الشريك بنفقات طعامه ورعايته، فإنْ باعه أو حصل على منفعة أو جائزة من سباق أو غيره، فيقسم العائد مناصفةً بين المالك والشريك.

أما أثمان الخيول فكانت تتفاوت بحسب رسن الفرس وعمرها ولونها، وبالتأكيد فإنّ ما كان يدفع ثمناً للفرس الأنثى هو أعلى مما كان يدفع في ثمن الحصان، أما طريقة دفع الثمن فقد تنوعت، إذ قد تكون نقداً وقد تكون مقايضةً بأنعام أو ماشية أو أرض أو ثمناً لقطعة سلاح أو جزءاً من مهر أو دية وغير ذلك، وقد وصل ثمن الفرس موثقة النسب في هذا الوقت إلى مئة مليون ليرة سورية وأكثر، لكن هذا الثمن ينخفض كثيراً للخيول الأصيلة غير المسجلة في قوائم التوثيق.

وكانت عملية بيع الخيول تقتضي توثيقاً وشهوداً بين البائع والمشتري، ويسمّى ذلك بالحُجّة، وهي وثيقة تحمل نسب الفرس وأصلها، وتتضمن صفاتها وشروط بيعها وغير ذلك من المعلومات التي تتصل بأصل الشراء، وقد استعيض اليوم عن الحجة بالعقود النظامية، وكان يحدث في الماضي أنّ مثل هذه الوثائق قد تزوّر، إذا كان الشراء من أسواق المدن أو من أشخاص محتالين، ولذلك يلجأ بعضهم إلى السايس الخبير ليقيّم وضع الفرس ويعطي رأيه في عتقها وأصالتها، وثمّة حكايات كثيرة يتداولها الناس عن أنواع الحيل وحالات الغش والتدليس التي تقع في هذا المجال.

- مكانة الخيول:

للمزايا والصفات والطبائع التي تكون عليها الخيول كريمة الأصل، كان اهتمام أهل الجزيرة بتربيتها وتنميتها ورعايتها اهتماماً شديداً، لا يوازيه اهتمام آخر، وقد تجلى ذلك أنهم كانوا يؤثرون خيولهم على أبنائهم وبناتهم وأفراد أسرهم، ويفضلونها في طعامها وتغذيتها على أنفسهم، وكانوا يحرصون كلّ الحرص على الحفاظ عليها، وعلى سلامتها ونقاء سلالاتها، وبلغ من حبهم لها أنّهم كانوا يطلقون عليها أسماء أخواتهم وبناتهم، فينادونها بهذه الأسماء، كقولهم صبحا وسعدى وهديلا وسواها من الأسماء المألوفة، بل إنّهم قرنوا بين شرف الفرس وشرف المرأة، فكانوا إذا طعن شخص ما في نسب فرسٍ أو في سلالتها، كان الواحد منهم عند سماع ذلك يضع يده على صدره علامة استنكار ويقول: أدخل على الله، تعبيراً عن التحفظ والاستنكار الذي يرونه تهمةً وفرية لا يجوز أنْ تقال في فرسٍ ونسبها وسلالتها دون برهان، كما لا يقال ذلك في المرأة دون شهودٍ وإثبات.

ومن مظاهر عنايتهم بالخيول وتعلّقهم بها أن بعض العشائر كانت تدفع زكاة الفطر عن خيولها كما تدفعها عن أفراد أسرها، وكان من عادة النساء

تخضيب شعورهن بالحناء قبل ليلة العيد، وكذلك كان يتم تخضيب جبهة الفرس تشبيهاً لها بالنساء ومعاملتها كمعاملتهن.

ومما يدل على مكانة الخيول لدى أهل الجزيرة ومساواتهم بها للإنسان نفسه، أنّهم فرضوا ديةً على قاتل الفرس، دون سائر الدواب الأخرى، وخصوها بالإكرام، فجعلوا لصاحبها سهماً إذا أعارها في غزوة أو غنيمة، وذلك تقديراً واعترافاً بما لها من مكانة ودور.

وقد أكثر أهل الجزيرة من الفخر بسلالات خيولهم وأنسابها وأرسانها، وتغنّوا في أشعارهم وأهازيجهم بمظهرها وجمالها، وصفاتها، وبلغ من حرصهم على حفظ أنسابها أنّهم كانوا يأبون أنْ ينزو حمارٌ أو كديشٌ أو بغل على فرس أصيلة، إلا إنْ وقع ذلك دون علم أو معرفة منهم خلال وجود هذه الأنعام في المراعي، بالرغم من أنّهم احترزوا لهذه القضية، فكانوا لا يطلقون الأفراس وهي في طور طلب الفحل في المراعي بل تبقى في المرابط، حتى يتم لقاحها بمعرفتهم من حصانٍ أصيلٍ كريم، وما يدل من جانب آخر على إكرامهم للفرس، أنّهم منعوا وَسْمَها بالكيّ على جلودها، كما توسم الأنعام والحيوانات الأخرى.

- طبائع الخيل:

ومن خلال الموروث الشعبي وتجربة الحياة، يبدو أنّ طبائع الخيل لا تختلف من حيث الجوهر عن طبائع البشر، وما هو أصيلٌ منها فطباعه لا تختلف عن طبائع أحرار الناس وكرامهم، ويصح ذلك في الهجين من الخيول، إذ نجد في طباعها ما يقترب من طباع الهجين من الناس والخدم، ولهذا السبب شبّهوا الفرس بالمرأة، والحصان بالرجل،والمهرة ببنت البيت، ففي إناث الخيل نلمح خفراً وحياء، فأطلقوا عليها: «بنات الحمايل» تشبيهاً بالنساء ذوات الحسب والنسب، ووجدوا في ذكورها مظاهر رجولةٍ وغيرةٍ واعتداد، فقالوا عن الرجل: «هو حصان البيت»، وبلغ الأمر حالة من التماهي بين المرأة والفرس فكانوا، إذا طلبوا يد فتاة للزواج كنّوا عنها بالفرس فقالوا: «نريد فرساً تأكل بيدها»، وشبّهوا العروس في أهازيج زفافهم بالفرس إكراماً ودلالاً ومما جاء في ذلك[٣٢]:

فرسْ الدليميْ هالذي جبناها
عبيّا على حبّ الشعيرْ غذاها
فرسكْ يا جاسمْ ما عليها عوزي
يا منْ حوافرها كصمْ الجوزي

والواقع أنّ الخيول وإن انتمت إلى أسرة الخيليات كالبغال والكدش وأنواع البراذين، تتميز منها بوجوهٍ كثيرة، فهي أشد ذكاء، وأوسع فهماً، وأكرم نفساً، وأنبل سلوكاً في الشدائد والنوائب الصعبة.

وتروى في طبائع أصائل الخيل قصص وحكايات كثيرة، من ذلك أنّها تنقاد لفارسها وتقبل عليه إن ناداها باسمها، وتطاوعه فيما يريد، فلا تحرن كالبغال والحمير، ويقال إنّ الفرس الأصيلة تنقذ فارسها إذا طعن أو أصيب، وتتحامل على نفسها لتنقذه بالجري حتى وإن كانت هي مصابة، إلا إذا ارتمت وسقطت على الأرض، ومن طبائع الخيل أنّه إذا قتل فارسها في ميدان المعركة جالت ووقفت عليه تصهل وترهم، ومن كرم الخيل أنها لا ترمح فارسها، وتوصف بالحساسية وبنوع من الاعتداد بالذات، فهي إذا ما ضربت على وجهها وقدم لها العلف رفضته، وأبت أنْ تأكل منه، لذلك كانت تستأنس بفارسها، وهو أيضاً عند طعامها وشرابها يؤنسها بالصفير أو بملامسة جلدها وشعرها، وكما يروي مربو الخيول وعشاقها، فإنّ رؤيتها ومداعبتها ومؤانستها تجلو الهموم والأكدار، وتطهر النفس، وتشرح الصدر، وتعيد للإنسان توازنه النفسي والانفعالي.

بيد أنّ بعض الأطوار قد تعتري الفرس تخالف ما جبلت عليه من الصفات والطبائع السابقة، وهذه حالات تعتريها في مواقف محدودة لأسباب لا تمثل الشائع في سلوكها، فمن ذلك ما يقال للفرس «إنّها عزمت بالفارس»، وهو مصطلح يطلق على الفرس إذا جمحت واندفعت في عدوها دون توقف، بالرغم من محاولات الفارس كبح جماحها باللجام والعنان، ومن ذلك أيضاً أنّها تمتنع عن التقدم في السير بالرغم من محاولة فارسها حثّها على ذلك، فيقولون: «حسرت الفرس»، ويسود اعتقاد في تفسير هذا السلوك أنّ ثمة ما يعرض لها من الجن، فلهذا تتوقف عن السير ويعتريها اضطراب وهيجان، ويعلو صهيلها، وتظل كذلك حتى تهدأ ويزول ذلك العارض، وهذه الأطوار

ممـا يذكـره أهـل الجزيـرة ويتناقلونه، ولهـذا كانوا يعلّقـون الأحراز في أعناق الخيول وقايةً لها من العزم والحسر.

- سائس الخيل:

وهـو شخصيـةٌ تذكـر دائماً بـين أهـل الجزيرة، لارتباط دورهـا بخيولهـم، فيقال: سائـس ويلفظونه «سايس» بتخفيف الهمز، وهو مشتقٌّ من الفعل ساس، إذا يقـال: «ساس الدواب،قـام عليهـا وراضها، فهو سائس وجمعه سَاسَة وسُوّاس»[٢٤].

ويعـدّ السايـس شخصاً خبـيراً بطبائـع الخيول، ويوصـف بأنّـه يمتلك فراسـةً وطاقـات نفسية تجعله قـادراً علـى قـراءة طالـع الفرس وحظهـا، ومـا قد يعرضـ لها وما يمكن أنْ يحمل وجودها لدى مالكها أو مشتريهـا من نفعٍ وخير أو ضـررٍ وشر، فهو في تكوينه النفسـي أقـرب مـا يكـون إلى شخصيـات العرافين والمتنبّئـين، وعليـه يلجأ إليـه الناس في تقييـم أحوال الخيـول، فيقال لـه: «سُوّس لي هـذه الفرس»، فينظر السائـس، ويتأمّلهـا ويعاينهـا ثم يقول ما يـراه فيها، ويلجـؤون إلى السايـس أيضـاً للفصـل بـين أجناس المواليـد إذا اختلطت وتنافسـت عليها إناث الخيل، أو إذا مـات أحـد مواليدهـا في المرعـى، فتزاحمت على مولود واحد فرسان، فيفصل بخبرته بين المتخاصمين ويحدد من تكون أم المولود.

ولما كان السائس يوظف مهاراته النفسية في جوانب أخـرى، فقد كان مـن الشخصيات التـي يتقرّب إليها الناس، ويكثرون مـن استشارتها في المواقف المختلفة، وكانوا يهبون السائس بعضـ الهدايا والإكراميات، إذ لم يكـن يطلب أجراً بالمعنى المألـوف، وكان هو أحياناً يبادر فيطلـق نصيحةً أو حكماً عندمـا تقع عينه على دابـة أو فرس من تلقاء ذاتـه، وكأن ذلك يصدر عن قوة باطنية واندفاع ذاتي دون إرادة منه.

بيد أنّه قد يقـع التباس في ذهن الكثير من الناس بين هذا النمط مـن السوّاس، وبين نمط آخر يقتصر دوره على خدمة الخيـول والعناية بنظافتها وطعامها، والذهاب بها إلى الحقول والمراعي، وهؤلاء ممن كانوا يعملـون لقاء أجر في خدمة خيـول العساكر، وحظائر مخافر الدرك، الذين كانـت الخيول وسيلة تنقلاتهم إلى ما قبل سبعينيات القرن العشرين.

- البَيْطار:

أما البيطار فهو من الشخصيات المعروفة لدى أهل بادية الجزيرة، لاتصال طبيعة عمله بحياة الخيول والفصيلة الخيلية على العموم.

ويختلف البيطار عن السائس، فإذا كانت قدرات السائس قدرات نفسية، فالبيطار يمتلك معرفة عملية وخبرة طبية، فهو بمنزلة الطبيب البيطري، إذ كان الناس يذهبون بدوابهم المريضة إليه لمعالجتها، وكان منهم من يخرج بأدواته إلى مضارب العشائر والقرى، عارضاً خدماته الطبية، والواقع أنّ البيطار يمتلك معرفة محدودة لكنها متوارثة، فيجيد طرق تجبير الكسور، ويستخدم الكي للعلاج، كما يستخدم بعض خلطات الأعشاب للأمراض الباطنية، وبعض الدهانات لمعالجة أمراض الجَرَب والعَرَن والدَّبَر.

ويقوم البيطار فضلاً عن ذلك بتحذية الخيول بنعالٍ من حديد تسمى الواحدة منها «نضوة»، بعد أن يقلّم حوافر الفرس، وتثبيت هذه النعال بمسامير من حديد، ويتلقى البيطار أجراً مادياً على ما يؤدّيه من خدمات، ويفتخر أحد زعماء العشائر بتحذية الخيول التي غنمها ويصف عملية التحذية فيقول [٣٥]:

يا خليفْ قطّعْ للسبايا مساميرْ
عن الحفا يا شوقْ موضي جبينه
يا ما حلا يا خليفْ تعميرة الكيرْ
براسْ اللبيدْ بينْ خضرا ولينه

- أمراض الخيول:

إذ كان البيطار يتولّى تشخيص أمراض الخيول ومعالجتها قبل ظهور العيادات البيطرية والأطباء البيطريين وإنتاج الأدوية واللقاحات الوقائية، وعدا الكسور والإصابات التي تتعرض لها الخيول جراء عدوها وجرها والتشققات والنواسير التي تصيب سنابكها وحوافرها، فقد سمّى أهل الجزيرة بعض أمراض الخيول، وهي تسميات ذات طابع محلي غاب الكثير من مدلولاتها وطرق علاجها اليوم، كما كانت شائعة آنذاك، ومن خلال ما يذكره بعض كبار السن وأصحاب مرابط الخيول نذكر الأمراض الآتية:

١. القرون: وهي زوائد لحمية كالناميات والجيوب الأنفية تنبت في تجويف منخري الفرس، ومن أعراضها ظهور سيلان دموي يصاحبه توتر واضطراب يعتري الفرس.

٢. الزرَد: وهو كما يبدو مرض يصيب حلوق الخيل، ما يؤدّي إلى امتناعها عن تناول العلف وشرب الماء، لصعوبة البلع أو ما يشبه ذلك.

٣. الظفرة: وهو مرض يعتري الخيل، ومن أعراضه امتناع الخيل عن تناول علفها لعلّة داخلية.

٤. القولنج: وهو مغص يصيب أمعاء الفرس، ويؤدّي إلى النفخة والتشنّج والوهن وعدم قدرة الفرس على العدو والجري، ويبدو أن هذا المرض هو داء «المِغْلة» وهو وجع البطن كما ذكرته العرب قديماً[٣٦].

٥. الهَلَب: مرض جلدي يؤدي إلى تساقط خصل من شعر الفرس، لاسيما شعر معرفتها أي رقبتها وعنقها وشعر ذنبها، وقد يرجع ذلك إلى إصابة جلد الفرس بالفطريات والحشرات كالقراد على سبيل المثال نتيجة العدوى أو عدم نظافة المكان.

٦. الجَرَب: وهو كذلك من الأمراض الجلدية التي تصيب الناس والدواب على السواء، بسبب بعض الفطريات التي تصيب الجلد، ويؤدّي إلى حكة قوية تسبب التوتر الشديد.

٧. العَرَن: وهو مرض جلدي ينتج عن تناول نبات العرن،ويؤدّي إلى انسلاخ وجوه الخيول ذوات اللون الأبيض والأشقر منها،وتعالج أمراض الهلب والجرب والعرن ببعض أنواع المراهم والقطران.

٨. الدَّبَر: وهو داء يصيب ظهور الخيل،فيتقرّح

جلدهـا بسبب احتـكاك السرج وسحجـه إذا لم يشد ويربط بإحـكام، ويعالج ببعض المراهـم وعدم ركوب الفرس حتى تشفى منه.

٩ـ الثُّبَـار: ويبـدو أنـه مـن أنـواع الالتهابـات أو الروماتيـزم الـذي يصيـب مفاصـل الخيـول، ومـن أعراضـه أن الفرس لا تقوى على الوقوف فتبرك على الأرض.

١٠ـ الكُشبار: مرض لم نقف على دلالة معناه وعلى أعراضـه، إذ كان يـرد في بعض عبـارات الدعوة على الخيل فيقال: «ريتك بالكشبار».

وفي ضـوء المعلومـات المنقولـة فـإن البيطـار أو الأشخاص ذوي الخـبرة عرفـوا أساليـب ووسائـل مختلفة للعلاج منها: الكـي، وطرق التجبير المعروفة، وتقليم الحوافر، واستخدام الحقن، و خلطات المراهم والقطران، وسواها من الوسائـل والأدوية الشعبية في تلك المرحلة.

ـ الحجب والأحراز:

وكانـت من عادات أهـل الجزيرة المتبعـة، ومن بينها أنَّ المـرأة عندما تقتني أسرتها فرسـاً جديدة تقوم بلطخ جبهتها بقطعة من العجين المختمر تفاؤلاً بخيرها ونتاجها، وتكـون عـوذة تقيهـا مـن العـين والحسـد، كمـا كان من عاداتهم أنّ مالك الفرس ينحر ذبيحة عند شرائها ويدعو جيرانـه والناس حولـه إلى وليمته،ويعـدون ذلك من باب الصدقـة التي تطفئ حسد الحاسديـن وأصحاب العيون، وكان من عاداتهم الأخرى أنهم يعلّقون حرزاً أو حجاباً في رقبة الفرس وقاية لها من أذى النظرة والحسد إلى جانب تعليقهـم بعض أنـواع الخرز الأخرى للغايـة نفسها، وهذا الاعتقـاد ممـا عرفته العـرب قديماً وعملت بـه، إذ كانوا كمـا تذكر المرويات، يرقون خيولهـم فيجعلون في أعناقها «خرزة من قرون الأيائل لتسلم من العين وأشباه ذلك»[٣٧] ومن ثـم فهذه العادات التي سار عليهـا أهل الجزيرة هي امتداد لتلك المعارف وتلك العادات منذ أمد طويل.

- طراد الخيل وسباقاتها:

وهو من المشاهد والطقوس والرياضات التي دأبت العرب على القيام بها وأدائها منذ عهود بعيدة، والغاية من طراد الخيل هو المتعة والتنافس وإحراز الشهرة من جانبٍ آخر، فضلاً عما يكون له من دورٍ في صقل مواهب الفارس وشهرة للفرس، ومجدٍ تحرزه القبيلة بفوز فرسانها.

أما الطراد فهو مشتقٌّ من المطاردة، وهو أنْ يلحق فارسٌ بآخر، فيسبقه، وهكذا يتناوبان الملاحقة والمطاردة، وتشارك في الطراد خيول العشيرة وفرسانها، وغالباً ما يقع الطراد وقت العصر إلى ما قبل الغروب، ويطلقون على موقع الطراد اسم «الملعب»، ويسمّونه أحياناً «المَلَز» من الملازة، وهي أيضاً المنافسة في السباق.

ويعد الطراد نشاطاً حراً يؤدّى على مدار أيام السنة، ومن خلاله تتكشف قدرات الخيول ومهارات الفرسان في الملاحقة والمراوغة، وإظهار الحركات البارعة، كالوقوف على ظهر الفرس أو الانحناء لالتقاط غرضٍ ما من الأرض، والالتفاف من تحت بطن الفرس، وغيرها من المهارات الأخرى، وترافق

طقوس الطراد أهازيج الحماسة التي يطلقها الفرسان كالحُداء والهُوسة،وتقليد صولات الكرّ والفرّ،وإطلاق صيحات الإغارة والمطاردة، كما في الأهزوجة الآتية:

الخيلْ بالقمرة حلوْ ممشاها
والجيرة الزينة فلا ننساها
الخيلْ بالقمرة حلو ممشاها
والرفجة الطيبة ما ننساها

وفي وصف مشهد الطراد وجماليات مطاردة الفرسان وما لها من أثر عميق في نفوس أهل البادية، قال الشاعر فليح الجبوري [٢٨]:

يا لونْ غزلانْ المها أو كما الغيدْ
لو شافهن قلبْ المعنّى رمنّه
تشوفهن منْ يومْ يجفن مطاريد
وإليا أقبلن يا فرحة الي يجنّه
ما وقفت لا عندْ شايبْ ولا وليدْ
ما دام حبْ وركبة الخيلْ سنّه

أما السباق فهو نشاطٌ منظّم، وله شروط وقواعد، ويكون بين فرسان عشائر مختلفة، ولا يشارك في مسابقات السباق سوى الخيول المشهورة بسرعة عدوها وجريها، والفرسان المتمكنين من مهارات المطاردة وذوي الخبرة.

ويجري السباق في مناسباتٍ محددة كالأفراح والطهور والأعياد والأعراس، وذلك دون أجرٍ أو جائزة، بل لقصد الترفيه والتعبير عن الاحتفاء والسرور بالمناسبة، أما السباق الذي يجري بين فرسان العشائر فهو سباقٌ يقترن بالرهن والجائزة، وله قواعد تحدد أصوله من حيث تجمع الخيول، ومضمار انطلاقها، وخط النهاية لها، ويراقب ذلك مشرفون يتفق عليهم، ويعد الفرس الذي يصل أولاً إلى خط النهاية هو الفرس الفائز، ويسمّونه السبوق، ويكون التفاضل في ذلك دقيقاً بين المتنافسين، يكون السابق هو الأقرب إلى خط النهاية، ولو كان بخطوة فرسٍ أو بطول رقبتها.

والسباق طقس عشائري يحضره الناس ويشاهدونه صغاراً وكباراً، والفائز يحصل على الرهان أو الشرط الذي يتم الاتفاق عليه، ويكرّم بإطلاق الرصاص من فوقه، وزغاريد النساء من حوله، وتعد الفرس الفائزة وفارسها مفخرةً للعشيرة ولسمعة خيولها وفرسانها.

وقد كان هذا النشاط في ستينيات القرن العشرين وما قبل من النشاطات المشهودة، إلا أنّ الاهتمام به تراجع، دون أنّ ينقطع، إذ صارت تنظّم بعض المسابقات ضمن المحافظة أو خارجها، ولكن في أوقات متباعدة وقليلة، بيد أنّه إلى اليوم ما تزال بعض العشائر في مناطق القحطانية والجوادية واليعربية تنظم مبادرات شعبية ومهرجانات لسباق الخيل والاحتفال بها ولاسيما في فصل الربيع، وتختار لذلك مناطق مفتوحة وبريّة واسعة.

- الخيول بين الماضي والحاضر:

بالرغم من الاهتمام الكبير الذي أولته عشائر الجزيرة للخيول وتربيتها، وبالرغم من الأثر الكبير لتلك الخيول في حياة أفراد عشائرها، تراجع ذلك الاهتمام تراجعاً ملحوظاً، في الدواب بشكل عام وبالخيول على نحوٍ خاص، بسبب التغيّرات الاجتماعية والاقتصادية، ولاسيما انتشار وسائط النقل الحديثة، والمعدّات والآليات الميكانيكية، إذ قلّ الاعتماد على القوة العضلية للدواب والخيول، واستغنى الناس عن خدماتها في النقل والحمل والجر، والأعمال الزراعية وسواها، الأمر الذي أدى إلى تراجع تربيتها و العناية بها، فتراجعت أعدادها، وكاد بعضها يختفي أو يوشك أن ينقرض.

ومن الطبيعي أنّ تقود المتغيرات السابقة إلى انحسار مرابط الخيول في الجزيرة السورية، إذ أصبحت متطلبات تربيتها والعناية بها تحتاج إلى وقتٍ وتكلفة ونفقات مالية، ولاسيما أنّ التجارة بالخيول والإقبال على اقتنائها لم يعد من اهتمامات الناس، أو يشغل بالهم في هذا الوقت إلا في حالات نادرة.

بالرغم من ذلك فثمة أسر وبيوت ما تزال تحافظ على موروثها في تربية الخيول والحفاظ على مرابطها، وسلالات أرسانها، وأكثر ما نجد ذلك اليوم لدى عشائر طي والشرابيين وشمر، في وقتٍ كانت كل عشائر الجزيرة من قبل تولي تربية الخيول ومرابطها عنايةً كبيرة.

والواقع أنّه بالرغم من أهمية إحداث مكاتب لرعاية شؤون الخيول لدى مديريات الزراعة منذ عام ١٩٨٦، وما توفر من خدمات بيطرية ورعاية صحية أفضل من قبل، فإنّ ذلك لم ينعكس على إثارة الاهتمام بتربية الخيول والإقبال عليها كظاهرة عامة كما كان في الماضي، وإنما اقتصر على بعض الأسر والبيوت، وفي ذلك ضياعٌ لثروةٍ وتراثٍ عربي وموروث اجتماعي، وثقافة تمتد جذورها في عمق المجتمعات العربية منذ أقدم العصور.

من هنا تبدو الضرورة لإعادة الاهتمام بتربية الخيول وزيادة مرابطها، والحفاظ على أرسانها، وتقديم التسهيلات المادية والمعنوية لمربي الخيول، وتشجيع إقامة المهرجانات والسباقات السنوية، وتقديم التسهيلات لمربي الخيول على المشاركة في المسابقات الإقليمية والدولية، وضرورة استكمال خطوات توثيق أنساب الخيول الأصيلة التي جرت في عام ١٩٨٧ وعام ١٩٩٧.

ففي ذلك ما ينعكس إيجاباً على حياة مربيها من جوانب اقتصادية ومادية، وإجراء إحصاء دقيق لها ذلك أنّ الإحصاءات التقريبية للخيول موثقة القيود تصل إلى ٣٥٠٠ فرس و١٥٠٠ مهر وعددها الإجمالي ٥٠٠٠ لغاية العام ٢٠٢٣ ويقدر عدد الخيول الأصيلة غير المسجلة بنحو ٤٠٠٠ فرس،وكل ذلك للمساهمة في الحفاظ على جزء من التراث والهوية الثقافية والتراثية لأبناء الجزيرة وعشائرها السورية.

- الهوامش والإحالات:

١- سورة النحل: الآية ٨.
٢- لسان العرب: خَيل، عيون الأخبار: ١٥٥/٢.
٣- لسان العرب: فَرَس.
٤- لسان العرب: حَصَن.
٥- المنجد في اللغة: رها.
٦- المنجد في اللغة: بَرد.
٧- الرهاوين: مدينة الرهـا، وهي مدينة أورفة الآن، مكلّف: متعب، الرهاوين: مفردها رهوان.
٨- سومر وأكاد: ص ١٥٦.
٩- صحيح البخاري: رقم الحديث ٢٨٥٢، وصحيح مسلم: رقم الحديث ١٨٧٣، وعيون الأخبار: ١٥٣/٢.
١٠- المنجد في اللغة: ربط.
١١- العمدة: ١٩٠/٢ – ٩٦٦.
١٢- أنساب الخيول العربية الأصيلة: ص ٤١ – ٥٣.
١٣- أسماء خيل العرب: ص ١٦٤، والعمدة: ٩٦٥/٢.
١٤- الحيوان: ٥٢٠/٥.
١٥- الحيوان: ٥٢١/٥.
١٦- الحيوان: ٢٢٢/٥.
١٧- فقه اللغة: ص ١٣٧.
١٨- أنساب الخيل للكلبي: ص ٢١، والعمدة: ٩٦١/٢.
١٩- عيون الأخبار: ١٥٣/٢.
٢٠- فقه اللغة: ص ١٢٤.
٢١- مسند أحمد: ٢٥٣/٣٧، وأنساب الخيل: ص ١٩.
٢٢- شدّوله: شدّ، ربط السرج على ظهر الفرس، جلال: قطعة من قماش أو سجاد، ضافي: مسبل، الكار: الصنعة والخبرة.
٢٣- العمدة: ٩٦٢/٢، ٩٦٣.
٢٤- العمدة: ٩٦٥/٢.
٢٥- عيون الأخبار: ١٥٥/٢.
٢٦- المنجد في اللغة: صَهَل.
٢٧- العمدة: ٩٦٠/٢.
٢٨- المنجد في اللغة: رَهَم.
٢٩- المعلقات العشر وأخبار شعرائها: ص ١٣٣.
٣٠- المنجد في اللغة: لَجَم.
٣١- عيون الأخبار: ١٥٣/٢، وفي ذلك خلاف.
٣٢- صورة الأرض: ص ٧٤، ١٥٠.
٣٣- الدليمي: نسبة إلى عشيرة الدليم المشهورة، عوز: نقص، كصم: قِطع وكِسر.
٣٤- المنجد في اللغة: ساس.
٣٥- تعميرة: بناء ونصب، الكير: أداة نفخ يستخدمها الحداد، قطّع: قص وفصل، السبايا: الخيل التي يغنمونها في الحروب والغزوات.
٣٦- عيون الأخبار: ١٦٠/٢.
٣٧- عيون الأخبار: ١٥٩/٢.
٣٨- المعنّى: المولّه، أقفى: أدبر.

- المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم.
٢- أسماء خيل العرب وأنسابها: الأسود الغندجاني، ت: محمد علي سلطاني، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨١.
٣- أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام: ابن الكلبي، ت: أحمد زكي، القاهرة ١٩٤٦.
٤- أنساب الخيول العربية الأصيلة: ط ٧، مديرية الخيول، وزارة الزراعة، دمشق ٢٠٠٦.
٥- الحيوان: الجاحظ، ت: عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٦- سومر وأكاد: د. وديع بشور، دمشق ١٩٨١.
٧- صورة الأرض: ابن حوقل، بيروت، لبنان.
٨- صحيح البخاري.
٩- صحيح مسلم.
١٠- العمدة: ابن رشيق، ت: محمد قزقزان، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٨.
١١- عيون الأخبار: ابن قتيبة، دار الكتاب العربي، بيروت.
١٢- فقه اللغة: الثعالبي، ت: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت ٢٠١٢.
١٣- لسان العرب: ابن منظور، نشر دار صادر، بيروت، لبنان.
١٤- مسند أحمد.
١٥- المعلقات العشر وأخبار شعرائها: أحمد الشنقيطي، المكتبة الأدبية، حلب.
١٦- المنجد في اللغة: دار الشرق، ط: ٣٥، بيروت ١٩٩٦.

المطبخ الرحيباني التراثي

د. حسان عبد الحق

تشتهر مدينة الرحيبة بكثير من المأكولات الشعبية التراثية، التي تناقلتها الأجيال جيلاً بعد جيل. وكانت هذه الأطباق تُعد في أوقات معينة من السنة، ويمكن أن تتناولها الأسرة كوجبات على الغداء والعشاء في المنازل، أو في المناسبات، التي يُدعى إليها الناس كالأعراس، أو عند إقامة وليمة على روح أحد المتوفَّيْنَ، وتُسمى المناسبة التي تُحضر فيها هذه الوليمة قراءة الفاتحة، وكانت عائلة المتوفَّى تدعو الناس إليها، وبعد تناول الوليمة يقرأ الحاضرون الفاتحة على روح المتوفَّى، ويدعون له. وتُقدم المأكولات التراثية في مناسبات أخرى، مثل طهور الأطفال، ونجاح الطلاب في امتحانات الشهادات العامة، وعند تعافي أحد الأشخاص بعد إجراء عملية جراحية.

ويزخر المطبخ الرحيباني بالحلويات التراثية أيضاً، التي كانت النساء تحضرها في المنازل، وكان الأهالي يقدمونها إلى الضيوف في المناسبات، مثل مناسبة الخطبة والزفاف. وقد تُحضر في أوقات أخرى غير المناسبات، ولا سيما في أثناء لقاء الأصدقاء أو الأقارب أو الجيران بعضهم ببعض في منزل أحدهم حين يتبادلون الزيارات.

وسنحاول في مقالنا هذا الحديث عن أهم المأكولات والحلويات التراثية التي تخص مدينة الرحيبة دون غيرها، أو التي تُعرف في الرحيبة، وفي مناطق محدودة، مجاورة لها. ولن نأتي على ذكر الأطباق الشعبية الأخرى، التي تنتشر انتشاراً واسعاً في الرحيبة، وفي مناطق سورية أخرى كيلا نكرر ما كتبه غيرنا، وإذا عالجنا أحدها فستكون معالجتنا لها جزئية بغية تحديد الصفات الخاصة، التي يتصف بها هذا الطبق عند تحضيره في البلدة.

أولاً- الطبخات التراثية

تُعد طبخة المرقة الحلوة من أهم المأكولات التراثية في الرحيبة، واكتسبت أهميتها من لذتها، وانتشارها الواسع باعتمادها طبقاً رئيسياً في ولائم الأعراس، والمناسبات الأخرى. وتدخل في تكوينها البطاطا، والحمص، واللحم (لحم أغنام أو دجاج)، والبهارات. وهي من المأكولات الشتوية، والربيعية، ففي المناخ الحار جداً تفسد بسرعة. ويتناول الناس إلى جانبها الرز بالشعيرية، أو البرغل بالشعيرية. وتتبع سيدة المنزل الخطوات الآتية لتحضيرها، ففي البداية تسلق اللحم، ويستخدم الأهالي لحم الأغنام حصراً إذا كانت المناسبة زفافاً، ويُسلق اللحم بعظمه، ويفصل عن عظمه بعد نضجه. وإذا كانت المرأة تُحضر طبقاً منزلياً لأسرتها، ففي أغلب الأحيان تستخدم لحم الدجاج، وقديما كان أهل البلدة يحصلون على لحم الدجاج من حظيرة المنزل، وأخبرني والدي أن العائلة كانت تُعد وليمة على لحم الديك المنزلي سابقاً، وكانت تدعو البعض عليها. وأما الآن فيعتمد الناس على لحم الفروج، الذي يُباع في الأسواق. وفي حالات نادرة تستخدم العائلة لحم الحمام إذا كانت تربي الحمام في المنزل، وقد تستخدم لحم الحجل والقطا إذا كان رجال العائلة من هواة الصيد.

ولسلق اللحمة أياً كان نوعها، تجلب سيدة المنزل وعاءً مملوءاً بكمية من الماء (دست نحاسي في الأعراس، وطنجرة متوسطة الحجم للوليمة المنزلية)، وتضعه فوق

موقد الحطب المشتعل أو فوق الغاز المنزلي، وتضع اللحم فيه، وتضيف إلى اللحم أنواعاً مختلفة من البهارات الخشنة (ورق غار، وحب الهال، وحب القرنفل، وقرفة) وقطع كبيرة من البصل (**الصورة ١**). ويبقى الوعاء على النار حتى ينضج اللحم، وبعد نضجه تُخرجه سيدة المنزل من الوعاء، وتضعه جانباً، وتبقى المرقة في الوعاء. ويُستكمل تحضير هذه الطبخة بإلقاء كمية من البطاطا في المرقة، وتُحدد الكمية حسب المناسبة، التي تُحضر الطبخة لأجلها. والجدير ذكره أن ربة المنزل تُحضر عادة البطاطا في أثناء طهي اللحم، إذ تجلب حبات البطاطا وتقشرها، ثم تقطعها قطعاً كبيرةً على شكل مكعبات، وتضعها في وعاء منتظرةً اللحظة المناسبة لإلقائها في المرقة. وفضلاً عن البطاطا، تضع ربة المنزل كمية من الحمص المسلوق في المرقة، وقليلاً من بهارات العصفر، والملح، ويبقى الوعاء على النار حتى تنضج البطاطا، وحبات الحمص، التي لا تكون ناضجة نضجاً كاملاً حين تُضاف إلى المرق(**الصورة ٢**).

الصورة ١: سلق اللحم.

الصورة ٢: طنجرة المرقة الحلوة فوق موقد الحطب.

ويستخدم أهل الرحيبة مصطلحاً شعبياً للدلالة على المواد التي تتكون منها طبخة المرقة الحلوة، فبالنسبة للبطاطا والحمص تُعرف ب الطّرْشْ. ومن عادة أهل الرحيبة فصل المرقة عن الطّرْشْ بعد نضج الطبخة تجنباً لفساد هذا الطبق بسبب بقاء الحمص في المرقة (**الصورة ٣**). وتُحدد المناسبة التقاليد المتبعة في تقديم هذه الطبخة التراثية، ففي حفلات الزفاف سابقاً كان الأجداد يخلطون المرقة الحلوة مع الرز أو البرغل، ويضعون الخليط في مناسف، وعلى وجوه المناسف تُوضع قطع كبيرة من لحم الخراف المسلوق، وحين تُستهلك إحدى المواد التي يضمها المنسف يأتي أحد الأشخاص المكلفين بتجهيز الوليمة حاملاً كمية منها، ويضيفها إلى المنسف، وكنت

أشـاهد ذلك بأم عيني في المـدة الممتدة من ثمانينيات إلى منتصف تسعينيات القرن الماضي، فمثلاً حين تقل كميـة الطّرْشِ يطلـب القائمون علـى الوليمة من أحد الحاضرين إحضار كميه منه، ثم تُضاف إلى المنسف. وثمة شـخص كان يحمل وعاءً مملوءاً باللحم المسلوق، ويتجول بين المدعوين إلى الوليمة، وحين يُلاحظ نقصٌ في اللحم أمام أحد الضيوف، يضع كمية منه في المنسف أمام هذا الضيف. وجرت العادة أن يتناول الناس خبز التنور مع هذا الطبق في الأعراس (**الصورة ٤**).

الصورة ٣: الطرش (حمص وبطاطا)

وتختلـف طريقة تناول هذا الطبق في المنزل عما هي عليه في مناسـبة الزفاف، فحين تُجهـز الوليمة المنزلية تضع سيدة المنزل المرقة الحلوة مع لحم الدجاج في وعاء ، والرز في وعاء، والبرغل في وعاء آخر. وتضـم السفرة المنزلية صحوناً صغيرة، تُوزع على أفراد العائلة، ويسكب كل فرد قليلاً من البرغل أو الرز في الصـحن، ويضـيف إليها كمية من المرقة، واللحمة، ويتناول الكمية المخلوطة، وبعد الانتهاء منها يسكب كمية أخرى ويتناولها، ويستمر على هذا النحو حتى يشبع.

الصورة ٤: خبز التنور

وتشـتهر الرحيبـة بطبخـة تراثيـة أخـرى، ذات شـعبية كبـيرة، ويتناولهـا النـاس كافة، إنهـا طبخة الطقطوق. وبحسـب أعـراف أهل البلـدة، حين تنوي سـيدة المنزل تحضـير طبق الطقطوق تدعو جاراتها، أو نساء أخريات من أقاربها لمساعدتها، فهو واحدٌ من الأطبـاق، التـي تحتاج إلى جهد كبير وقت تحضـيره. وعنـد تناولـه لا تتناولـه الأسـرة بمفردهـا، بل تدعو آخرين لمشاركتها بذلك، وعلى الأرجح النساء اللواتي كـن يسـاعدن سـيدة المنزل بتحضـيره كن يشـاركن الأسـرة المستضـيفة بتناولـه. وهناك عائـلات كانت ولا تزال ترسـل كميـات من الطقطوق – مسـكوبة في أطبـاق أو زبادٍ – إلى الجـيران والأقارب. وتُطبخ هذه الأكلة الشـعبية في فصلي الشـتاء، والربيع، لأنها من الطبخـات الحـارة، التي ترفع درجة حرارة الجسـم، ومن الصعب تناولها في فصل الصيف.

ولإعـداد هذا الطبق تسـتخدم سـيدة المنزل المواد الآتيـة: الحمصـ، والعدسـ، والسـلق، والبطاطـا، والبصل، ومرقة التمر الهندي أو دبس الرمان، وكرات

صغيرة من عجينة مؤلفة من الطحين، والبرغل الناعم. وبعد جلب هذه المواد تسلق النساء الحمص، والعدس، وتضعهما جانباً، ثم تبدأ بتحضير المرقة، التي ستُوضع فيها المواد الأخرى المكونة لطبق الطقطوق، فإذا استخدمت ربة المنزل مادة التمر الهندي تحضر عصير التمر الهندي، وتضعه في وعاء معدني كبير، وإذا استعاضت عنه بدبس الرمان تضع كمية من دبس الرمان مع الماء في الوعاء المعدني، وبعد الانتهاء تُثبت هذا الوعاء على الغاز، الذي سيستخدم في طهي الطقطوق، لكن من دون إشعاله، ثم تقشر البطاطا، وتقطعها قطعاً كبيرة على شكل مكعبات. ويلي ذلك تحضير السلق، ولتحضيره تتخلص ربة المنزل من الأعواد القاسية التي تتصل بالأوراق من الأسفل، ثم تقطع الأوراق قطعاً صغيرة، وتغسلها، وتضعها جانباً. وفي النهاية يجري تحضير الكرات الصغيرة، المصنوعة من عجينة البرغل والطحين. ولتحضيرها تجلب المرأة كمية من البرغل الناعم، وكمية من الطحين، وتضيف إليهما قليلاً من الماء، وتخلطهما، وتعجنهما بعضهما ببعض، وتستمر على هذا النحو حتى تتحول العجينة إلى كتلة متجانسة، ومتماسكة، ثم تُشكل العجينة على شكل كرات صغيرة، يعادل حجم الواحدة منها حجم حبتي حمص تقريباً، وتضع هذه الكرات على قطعة قماش مفرودة على صينية كبيرة (**الصورة ٥**).

الصورة ٥: كرات العجين الصغيرة.

وبعد الانتهاء من تجهيز كل المواد، التي يحتاج إليها طبق الطقطوق، تنتقل سيدة المنزل إلى علمية طهيه، وتبدأ بإشعال النار تحت وعاء المرقة، وحين تغلي المرقة تُلقي ربة المنزل كمية البطاطا المقطعة فيها، ثم تضيف إلى المرقة المواد الأخرى (الحمص، والعدس، والسلق، وكرات العجين)، وبعد مضي نحو ساعة تنضج طبخة الطقطوق. وبعد نضجها تُضاف إليها كمية من الثوم المسحون، مخلوطة مع النعنع الجاف. وفي أثناء طهيها للطبق، تستثمر ربة المنزل الوقت في تحضير البصل، الذي يُضاف إليه لحظة تناوله، إذ تُقطع البصل على شكل جوانح، وتقليه بالزيت البلدي (**الصورة ٦**).

الصورة ٦: في الجهة اليسرى وعاء طهي الطقطوق، وفي الجهة اليمنى وعاء لقلي البصل.

وبذلك تنتهي المرأة من تحضير هذا الطبق، ثم تنتقل إلى تجهيز سفرة الطعام، وبحسب العادات، تسكب المرأة الطقطوق في أوعية كبيرة، ثم يؤتى بالطعام إلى المكان، الذي ستتناوله فيه العائلة مع ضيوفها (**الصورة ٧**). وعلى غرار الطبق السابق، يسكب الحاضرون الطقطوق بصحونهم بوساطة ملعقة كبيرة، ويضعون على وجه الصحون كمية من البصل المقلي، ثم يتناولونه. ويستمرون على هذا النحو حتى يشبعوا (**الصورة ٨**).

وذكرنا من قبل أن طبق الطقطوق طبقٌ جماعيٌّ، يجتمع على تناوله كثيرون في الوليمة الواحدة، ومما جعله يكتسب هذه الصفة كثرة النساء اللواتي يشاركن في إعداده، وهؤلاء يُدعون مع أفراد من عائلاتهم لتناوله عند العائلة المستضيفة، ولا سيما إذا كانوا من أقربائها. وطبخة الطقطوق تتكون من مواد كثيرة، إن كثرة موادها تزيد في حجم الكمية المطبوخة، مما يسمح في دعوة بعض المقربين لتناول الطبق مع العائلة المستضيفة.

الصورة ٧: أوعية طقطوق كبيرة.

الصورة ٨: صحون الطقطوق.

وثمة طبق تراثي آخر مُكون من بعض المواد المستخدمة في الطبق السابق، ويُطلق عليه كبة الحيلة. وتتشابه كبة الحيلة مع أنواع الكبة الأخرى بالشكل فقط، وتختلف عنها بالمذاق، وبالمواد التي تُكونها. وتنقسم كبة الحيلة إلى نوعين: كبة بطاطا، وكبة سبانخ. وتُطبخ كبة الحيلة بالمرقة الحامضة، المكونة من عصير التمر الهندي أو دبس الرمان. وقد تُطبخ بمرقة الكشك، المكونة من الماء والكشك.

ويتشابه نوعا كبة الحيلة بالقشرة الخارجية، المكونة من عجينة البرغل الناعم، والطحين. ويختلفان بالحشوة الداخلية، فكبة البطاطا تُحشى بالبطاطا المقطعة قطعاً صغيرة، واللحم، والبصل، والبهارات (**الصورة ٩**)، وأما كبة السبانخ فتحشى بالسبانخ المبهرة.

الصورة ٩: حشوة كبة البطاطا.

ولإعداد هذا الطبق تجهز ربة المنزل المرقة التي ستستخدمها في طبخ الكبة، وتحدثنا سابقاً عن طريقة إعداد المرقة الحامضة، وبقي أن نشير إلى طريقة إعداد مرقة الكشك. تجلب ربة المنزل كمية من الكشك، وتضعها في الوعاء الكبير، الذي ستطهي فيه الكبة، وتضيف إليه كمية من الماء، وتحرك الخليط ليتجانس، ثم تضعه جانباً ريثما تنتهي من تحضير الكبة. ثم تُحضر حشوة الكبة، وبعد تحضيرها تبدأ

بتحضير الكبة، ويستلزم تحضيرها مهارة عالية، وكلما انتهت المرأة من تشكيل كبة واحدة تضعها على صينية كبيرة مغطاة بقطعة قماشية، وتستمر على هذا النحو حتى تمتلأ الصينية بالكبة (**الصورة ١٠**)، وحين تمتلأ الصينية يؤتى بها إلى المطبخ، وتُشعل النار تحت الوعاء، الذي يحتوي على المرقة، وعند وصول المرقة إلى درجة الغليان تُلقي المرأة الكبة في داخلها (**الصورتان ١١ و١٢**)، وبعد مضي نحو نصف ساعة تنضج الكبة، فتخرجها المرأة من المرقة بوساطة ملعقة مثقبة، وتضعها في صينية. ويستخدم أهل الرحيبة المصطلح الشعبي الآتي لحظة إخراجها من المرقة: نَشْلُ الكبة.

الصورة ١٠: وضع الكبة على الصينية قبل طبخها.

الصورة ١١: طبخ الكبة بالمرقة الحامضة.

الصورة ١٢: لحظة طبخ الكبة بمرقة الكشك.

وبعد إخراج الكبة الناضجة من الوعاء الذي تُطهى فيه، تضع ربة المنزل كمية أخرى من الكبة في الوعاء نفسه، وحين تنضج تخرجها منه، وبعد الانتهاء من الكمية كلها تحضر المرأة السفرة، وثمة طريقتان لتقديم هذا الطبق، وتتجلى الطريقة الأولى بوضع الكبة في صحن كبير أو زبدية كبيرة، وإلى جانبها عدد من الزبادي الملأى بالمرقة (**الصورة ١٣**)، وأما الطريقة الثانية فتتمثل بوضع الكبة في صحن كبير، وتُسكب عليها المرقة (**الصورة ١٤**). ويتناول الحاضرون الكبة بسكب كمية في صحونهم، ويضيفون إليها قليلاً من المرقة، ويقطعون الكبة بالملعقة (**الصورة ١٥**)، ويحتسون عند تناولها المرقة التي طهيت بها.

وتعد الكبة التقليدية المصنوعة من البرغل واللحم والبصل من الأكلات الفاخرة في الرحيبة أيضاً. ومن أشهرها، وأكثرها شيوعاً الكبة اللبنية، والكبة المقلية، وينتشر هذان النوعان في معظم القرى والمدن السورية، وطريقة تحضيرهما موحدة في كل أنحاء سورية، لذلك لن نتحدث عنهما بالتفصيل، وسنكتفي بتناول الخصائص المحلية التراثية للكبة الرحيبانية. ومن أهم خصائصها المحلية تحضير نوع ثالث للكبة مكون من مواد النوعين السابقين، لكنه –على حد علمنا – لا ينتشر في المناطق الأخرى، ويسمى الكبة

الناشـفة، أو كبـة الدسـت، وتختلـف الكبة الناشـفة بطريقة طهيها عن الأنواع الأخرى، فبعد حشي الكبة، وتجهيزها، يؤتى بطنجرة نحاسـية كبيرة، وتُثبت على الغاز المنزلي، ويُوضـع فيها كمية مـن الزيت البلدي، وقليـلاً من الثـوم المفروم، والفلفل الأسـود، وتُصـف الكبة بعضها إلى جانب بعض في أسفل الوعاء، ويُغطى الوعاء بغطاء معدني، ويُوضـع الوعـاء على نار هادئة جداً، وبعد مضي بعض الوقت تنضج الكبة.

الصورة ١٣: صحون كبة الحيلة وزبادي المرقة الحامضة.

الصورة ١٤: كبة حيلة مطبوخة بمرقة الكشك.

الصورة ١٥: الكبة لحظة تناولها.

ومن الخصائص المحلية للكبة الرحيبانية استخدام لحـم الأرانب البرية في قشـرتها الخارجيـة، وكما هو معروف الآن معظم المناطق تستخدم لحم الماشية لهذا الغرض، واسـتخدام لحم الأرانب البرية محدود جداً، ويقتصـر على عائلات تهوى الصـيد (**الصـورة ١٦**). ويمتاز لحم الأرنب البري بخلوه من الدهن، لأنه يجري بشـكل مستمر ضـمن مساحات شاسـعة، ويحول ذلك دون ظهور طبقة من الدهن فوق اللحم. وهذا النوع من اللحم يتناسب مع قشـرة الكبة، التي تدخل في تكوينها لحمـة الهـبرة الخالية من الدهـن، التي تسـاعد على تماسـكها عند طهيها. وكان الناس سـابقاً يستخدمون لحم الغـزال في الكبـة، وارتبط هذا التقليـد بعائلات الصـيادين أيضاً، فقد سـمعت من المرحومة جدتي أم والـدي في ثمانينيـات القرن الماضـي أن المرحوم جدي كان يذهـب في رحـلات صـيد في البراري، ويصـطاد الغزلان، وحين يعود إلى المنزل كان يطلب منها تحضير طبـق الكبة بلحـم الغزلان. وتعـود هذه الأحـداث إلى أربعينيـات القـرن الماضـي. وبسـبب الصـيد الجائر للغزلان انقرض هذا الحيوان من برارينا.

الصورة ١٦: صيد الأرانب البرية.

وهنـاك نوع آخر من الكبة، يختلـف كثيراً عن الأنواع السـابقة، ويسمى كبة أبو آمنة، وهذه التسمية غريبة، ولا نعـرف أصـلها. وتتكون كبة أبو آمنة من قشـرة خارجية، وحشـوة داخلية. والقشـرة الخارجية عبـارة عن عجينة مؤلفة من الصريصـرة (مادة أنعـم من البرغل الناعم، تفرزها جاروشـة البرغل لحظة جرش القمح المسـلوق)، والبرغـل الناعم، والطحـين. وبعد عجـن العجينة تُقطع قطعاً صغيرة، وتُرق القطع على النحو الذي يعطيها شكلاً دائرياً، ولتشـكيل قرص أبو آمنة يؤتى بقطعتين دائريتين، ويوضـع بينهمـا الحشـوة المكونـة مـن البطاطـا واللحم والبصل والبندورة، وتُلصق القطعتان بعضهما ببعض من الأطراف، فيتشـكل قرص أبو آمنه، ويكون جاهزاً للطهي في التنور (**الصورتان** ١٧ و١٨) أو في الفرن المنزلي.

الصورة ١٧: طهي كبة أبو آمنة في التنور.

الصورة ١٨: أقراص أبو آمنة.

وثمـة أطبـاق أخـرى لا ترقـى من حيـث الجهد، والتكلفـة إلى الأطبـاق السـابقة، لكنها ذات شـعبية كبيرة بين الناس، مثل طبق سـميدة البطاطا، ويتألف هـذا الطبق من البطاطـا المسـلوقة، والبرغل الناعم المنقـوع بالماء السـاخن، والبهارات، والبصـل المقلي، وحـب الرمان الحامض، والبقدونس المقطع. وتُخلط هـذه المواد بعضـها ببعض، وحـين تتجانس العجينة تُقطع قطعاً صـغيرة، وتُشـكل بكف اليد بحجم قبضة اليد، وحينئذ تصـبح جاهـزة للأكل (**الصـورة** ١٩). ويُقدم هذا الطبق مع المخللات.

الصورة ١٩: طبق سميدة البطاطا.

ومـن الأطبـاق التراثية الخفيفـة الأخـرى البلة، الذي يُحضـر حين يلتقي الجيران، أو الأقارب بعضهم بعضـا. وفي كثير مـن الأحيان تخطر فكرة تحضـيره علـى بال سـيدة المنزل في أثناء تحضـير طبق اليبرق اليالنجـي، بسـبب تشـابه الطبقـين بالمـواد، التـي

تكونهما. ولا يصنف هذا الطبق مع الوجبات الغذائية، التي يتناولها الناس على الغداء والعشاء، فهو شبيه بالتبولة، التي تُحضر أحياناً في أثناء الرحلات، أو في المنازل. وتتكون البلة من البرغل الخشن المحمص بزيت الزيتون، ورب البندورة، والبندورة المقطعة، والنعنع، والبقدونس والملفوف. ويمكن أن يضاف لها الثوم أو البصل الأخضر. وتؤكل البلة بأوراق الدوالي المسلوقة، أو بأوراق الملفوف المسلوقة.

ويهتم أهل الرحيبة بأكلات المعجنات، مثل الفطائر، والمحمرة، التي تُحضر بالطريقة نفسها، التي تعرفها المدن السورية الأخرى، وتُخبز بالتنور (**الصورة ٢٠**) أو بالأفران المنزلية. وعرف المطبخ الرحيباني الفطائر المقلية، التي كانت تُقلى بالزيت على نحو مشابه للبطاطا المقلية (**الصورة ٢١**). وتُعد فطائر السبانخ من أكثر الأنواع شيوعاً في البلدة قديماً.

الصورة ٢٠: خبز المحمرة في التنور.

الصورة ٢١: فطائر مقلية.

وذكرنا في حديثنا السابق أن لحوم بعض الطرائد كانت تستخدم في بعض الأطباق، التي تتناولها العائلة في المنزل، وكذلك كانت تُكون جزءاً من الأطباق المحضرة في أحضان الطبيعة في أثناء رحلات الصيد، ولهذه الأطباق نكهة خاصة، لأنها تُطهى على الحطب، ويُستخدم فيها اللحم الطازج، ويتناولها الأفراد في الطبيعة. ومن عادة الصيادين اصطياد الأرانب البرية، وبعد الانتهاء من صيدها كانوا يخيمون في منطقة معينة، ويحضرون الموقد، ويسلخون الأرانب، وينظفونها، ويسلقونها في وعاء مخصص لذلك، وبعد الانتهاء من السلق يضعون لحمها جانباً، ثم يضعون كمية من البرغل الخشن في مرقة الأرانب، لتحضير طبق الدفين، وحين ينضج البرغل يسكبونه في صحون، ويغطون وجوهها بلحم الأرانب المسلوق، وهكذا يكون الطبق جاهزاً لتناوله. وجرت العادة أن يتناول الناس إلى جانب الدفين اللبن أو سلطة الخضار. ويُعد هذا الطبق واحداً من الأطباق المنزلية التراثية، ويُطبخ عادة بلحم الدجاج أو الخراف (**الصورة ٢٢**).

الصورة ٢٢: طبق الدفين بلحم الدجاج.

ويحبذ بعض الصيادين – في أثناء رحلات الصيد – تناول لحم الطرائد مشوياً، مثل الأرانب، والدراج، والقطا، والحجل، والعصافير. ومن ألذ الطيور المشوية، وأكثرها شعبية عصفور التين، وهذا الطبق من الأطباق القلمونية النادرة، والفاخرة. ومما يجعل مذاقه لذيذاً الشحوم الصفراء التي تتكون في بطنه، وتحت جلده بعد تناوله للفاكهة الصيفية. وعصفور التين من الطيور المهاجرة، ويمر

في سورية في موسم العنب، والتين، ويتغذى عليهما (**الصورة ٢٣**)، ويصطاده الصيادون بالبنادق في أثناء وجوده في البراري والبساتين. وبعد صيده يُنتف ريشه، وتُنزع أحشاؤه، ويُشك في الأسياخ، التي تُثبت على المنقل المشتعل (**الصورة ٢٤**)، وتُقلب الأسياخ أكثر من مرة، فينضج، ويكون جاهزاً للأكل. ويتناول الناس معه كمية من البندورة، والبصل المشوي. ولم يعد تناوله مقتصراً على الصيادين، بل أصبح واحداً من الأطباق الشهيرة، التي تُقدم في مطاعم سورية، والخليج العربي. ويتولى أمر صيده صيادون من البلدة، يبيعونه لتجار يمتهنون المتاجرة به، وبعد نتفه وتنظيفه يُوضع على نحو منتظم في صحون بلاستيكية، تُغطى بغطاء من النايلون الشفاف، ثم يُحفظ في البرادات بانتظار لحظة تصديره، أو بيعه للمطاعم في سورية.

الصورة ٢٣: عصفور التين

الصورة ٢٤: لحظة شَيّ عصفور التين.

ونستنتج من خلال عرضنا لبعض الأطباق الشعبية التراثية في الرحيبة أنّ البرغل والطحين مادتان أساسيتان في كثير منها، ويبدو لنا أن الناس تكيفوا في مأكولاتهم مع المواد المتوفرة لديهم، فالقمح الذي يُعد أساس هاتين المادتين كان متوفراً بكميات كبيرة في الرحيبة، ولا سيما حين كان يمتهن معظم الناس الزراعة قديماً.

ثانياً- الحلويات التراثية

يشتهر المطبخ الرحيباني بأنواع مختلفة من الحلويات، وتنقسم إلى قسمين، القسم الأول ينتشر في معظم المناطق السورية، والقسم الثاني يرتبط ارتباطاً مباشراً بتراث الرحيبة، وسنركز عليه. وذكرنا في إحدى مقالاتنا السابقة أن الرحيبة تشتهر بصناعة الدبس. إن توفر هذه المادة بكثرة في البلدة جعل الناس يفيدون منها بصناعة أنواع مختلفة من الحلويات، التي أصبحت جزءاً من الحلويات الشعبية، والتراثية فيها.

ومن أكثرها شهرة، وشيوعاً السيالات، وهي من الحلويات الشتوية، لأن الدبس يُنتج في الشتاء. وتُحضر السيالات على النحو الآتي: بدايةً تُحضر ربة المنزل عجينة سائلة شبيهة بالعجينة المستخدمة في

صـناعة قطع القطايف، وهذ العجينة مكونة من الماء، والطحين، والسـكر، والبكنبودر، وهي عجينة سـائلة، وتخلط يدوياً أو بالخلاط الكهربائي. وبعد تحضيرها تُوضع في وعاء، ثم يؤتى بمقلاة أو أي وعاء آخر يصلح لصـناعة أقراص السـيالات، التي تشبه رغيف الخبز الصـغير، ويُثبت الوعـاء على الغاز المنزلي المشـتعل، وحـين ترتفـع درجة حرارته تسـكب ربة المنـزل كمية من العجينة السـائلة على مساحته كلها، وحين تنضج قطعة السيالات تُوضع جانباً (**الصورة ٢٥**)، ثم تصنع قطعـة أخرى، وتسـتمر المـرأة على هذا المنـوال حتى الانتهاء مـن كل العجينة. وبعد الانتهـاء منها، يجري تحضير الدبس، الذي سيضاف إلى الأقراص، وعملية تحضيره بسيطة، إذْ تُوضع كمية منه في وعاء، ويُحمى الوعاء علـى النار كي يذوب الدبس، ويتحول إلى مادة سائلة. ثم تنتقل ربة المنزل إلى الخطوة الأخيرة، التي تتمثل بوضـع أقراص السيالات بعضـها فوق بعض في صحن كبير، ثم تسكب فوقها الدبس المذاب، فتمتصه الأقراص، وفـوق القرص العلـوي تسـكب قليلاً من الطحينة، وترش عليه بعض المكسـرات أيضاً (حسب الرغبة). وفي النهاية تُقطع الأقراص بسـكين ليسـهل على الأفراد تناولها (**الصورة ٢٦**).

الصورة ٢٥: تحضير أقراص السيالات.

الصورة ٢٦: صحن سيالات.

وعرفـت الرحيبـة قديمـاً حـلاوة العجايـز (العجائز)، التي تُصنع من الدبس، والسمن العربي، والصريصرة التي تحدثنا عنها قبل قليل. وتُخلط هذه المواد بعضـها ببعض ثم يُقطع الخليـط المتجانس إلى قطع صـغيرة، ثم تُشكل القطع باليد على نحو بيضوي أو دائري (حسب الرغبة). وبعد تشكيلها تُلقى القطع علـى طباقة القش كي تجف، وبعـد أن تجف تُخزن في سـقيفة المنزل، وكان فلاحو البلدة يتناولونها صباحاً قبل ذهابهم إلى كرومهم.

ومـن حلويات الدبـس حلاوة الجرش، وسُـميت بهذا الاسـم بسبب اسـتخدام مادة القمح المجروش كمـادة أساسـية فيهـا. ولتحضـيرها يُوضـع القمح المجروش في وعاء معدني، ويُضـاف إليـه كمية من الماء، والدبس، والسـمن، ويُطهى الخليط على النار على غرار البرغل، وحين ينضـج يُسـكب في صينية، أو في صـحن، ويُـترك قليـلاً حتـى يـبرد، وبعـد أن يبرد يجمد، وحينئذٍ يُقطع بالسـكين قطعاً صـغيرة، ويتناولـه الحاضـرون قطعـة تلو الأخـرى (**الصورة ٢٧**). وكان النـاس قديمـاً يقدمون هذا الطبق هدية لعائلـة العريس يوم النقوط بمناسـبة زفاف ابنهم، وكان يُقـدم مع الشـاي ضـيافةً في حفلات الخطوبة أيضـاً. وأما الآن فيُحضـر في المنازل كطبق تراثي لا أكثر، توارثه الأحفاد عن الأجداد.

الصورة ٢٧: حلاوة الجرش.

وعرفت الرحيبة قديما طبقاً آخر من الحلويات، يُسمى البسيسة، التي كانت تُحضر بطريقة بسيطة جداً. وتتألف البسيسة من خبز التنور، والدبس، والسمن. ولإعدادها كانت الجدات يجلبن أرغفة الخبز، ويرطبنها بقليل من الماء، ثم يقطعنها قطعاً صغيرة، ويضعنها في صحن، ثم يضفن إليها الدبس، والسمن، وحينئذ تكون جاهزة للأكل.

وكان الأهالي، ولا يزالون يستخدمون القمح المسلوق في تحضير طبق بسيط من الحلويات، له شعبية كبيرة بين الناس. ويتألف الطبق من القمح المسلوق، والسمن، ويضاف إليهما كمية من الدبس أو السكر، ومكسرات حسب الرغبة (**الصورة ٢٨**). ويُحضر هذا الطبق في أثناء سلق القمح، الذي ينوي الأهالي استخدامه في صناعة البرغل. وثمة طبق آخر شبيه به، ويسمى هذا الطبق سنونية، وأُطلقت عليه هذه التسمية لأن الأمهات تحضرنه في مناسبة ظهور أسنان أطفالهن الرضع. وفضلاً عن القمح المسلوق، والسكر الناعم، يُضاف إليه جوز الهند، والملبس، وبعض المكسرات، وسكاكر صغيرة (**الصورة ٢٩**). وتُوضع السنونية في صحون بلاستيكية صغيرة، وتُغطى وجوهها بقطع من النايلون الشفاف، الذي يُثبت في أطراف الصحون، ثم تُرسل إلى الأصدقاء، والأقارب احتفالاً بمناسبة ظهور أسنان الرضع.

الصورة ٢٨: قمح مسلوق بالدبس والجوز.

الصورة ٢٩: سنونية.

ونستنتج من خلال هذا العرض البسيط للحلويات التراثية في الرحيبة أن الناس قديماً تكيفوا مع المواد المتوفرة لديهم لتحضيرها، فالقمح- كما ذكرنا من قليل- كان من المنتجات الأساسية للبلدة، وكما لاحظنا استخدم الناس دقيقه في تحضير أنواع من الحلويات، وكذلك استخدموه كاملاً ومجروشاً في صناعة أطباق أخرى. والدبس الذي كوّن جزءاً من معظم الأطباق، كانت البلدة تنتجه بكثرة؛ لأن شجرة الكرمة شغلت المساحة الكبرى من الأراضي الزراعية، وانعكس ذلك على إنتاج الزبيب الوفير، الذي مثل المادة الأولية للدبس. وللسمن أهميته أيضاً في صناعة الحلويات، وكان هذا المنتج متوفراً زمن الأجداد، فمعظم الناس كانوا يقتنون حيوانات منزلية، كانت تنتج الحليب، ومشتقاته، وهو من مشتقات الحليب، وكان الأهالي يخزنونه في جرار في بيت المونة.

ما بينَ الخُرافةِ والحقيقةِ
أوهامٌ وطقوسٌ خُرافيَّةٌ

د. ليال سعيد أبو العز

ما بين الخرافة والقداسة يتلعثم المنطق، ويخفت صوته، لا لشيء إلا لأن هذين القطبين - أي الخرافات والمقدَّسات - يقبعان في ظل الغيب، فلا يستطيع الإنسان أن يقبض على دليل محسوس، أو برهان منطقي، أو جواب شافٍ لهما، لذا يظل حبيس أوهام تنحدر تارةً إلى رتبة الخرافة، وتعلو تارة أخرى إلى رتبة المقدَّس واليقين.

تزخر المجتمعات الإنسانية في كل بقاع الأرض بفضاء رحب يحلِّق في سمائه الخيال الشعبي، الذي لا ينفكُّ يروي معتقدات الأجداد وأساطيرهم وأوهامهم وخرافاتهم بماء الغيب المخيف، ورهبة الحرام والتحريم، فلا تلبث أن تخضرَّ تلك المعتقدات، وتنمو في كل زمن، فيتفيَّأ بظلها الوارف كل جيل، وبذلك يترسخ الوهم والخرافة على مر الأجيال، ويغدوان حقائق لا يجوز المساس بها، ولا التفكير بصحتها، ولا التشكيك بها، ولا مخالفتها أو الخروج عنها. من هنا يغدو هذا الموروث الذهني الغيبي الصلب جملة من

العـادات والتقاليـد الاجتماعية تـارة، والمقدَّسة تارة أخرى. لذا سنحاول في هذا المقام أن نتطرَّق إلى جملة مـن الأوهام والخرافات الذهنيـة والسلوكية الدارجة والسائدة في جبل العرب، آملين أن نضيء هذا الجانب المظلـم، الذي يستحـوذ على العقليـة العربية في هذه المنطقـة، وفي المجتمعات العربية عامـة. ولا سيما أنه «كشفـت الدراسات الأسطوريـة المقارنة عن أن هناك أساساً أسطورياً عقائدياً، بـل لاهوتياً مشتركاً لأغلب هـذه الشعـوب السامية منـذ أكثر من ألفـي عام قبل الميلاد»[١].

بدايـة، ليـس غريبـاً أن يصرِّح رائد علـم النفس فرويـد بأنـه: «يعيش إنسـان ما قبل التاريـخ داخل لا شعورنا دون أي تغيير»[٢]، ذلـك أن الإنسان المعاصر، وإن كان صاحـب علـم وثقافـة، أو صاحـب مكانـة اجتماعيـة رفيعة، فإنه يظل مقيَّـداً بمجموعة عادات وسلوكات ومقولات اجتماعية غارقة في بحر الخرافة، نجـده يتمثَّلهـا في سلوكـه وتعابـيره دون أن يشعـر، من هنـا يبدو الـتراث أو الفولكلور إطـاراً يؤطِّر عقل الإنسـان ويتحكَّـم بسلوكه، ويجعله أسـير ما هو دارج في هـذا المجتمـع الذي يحيـا فيه. وعليـه يجب النظر إلى «الفولكلـور باعتبـاره «ماضيـاً حيـاً»، أو النظـر إليـه باعتبـاره ثقافة منحدرة، أو مجـرد بقايا قديمة ومخلَّفـات، تواصِلُ توالدَها الذاتـي، وفرض سلطانها تحت تأثير العادة والتوارث وغياب العقل في مجتمعات ما قبل العقل والعلم»[٣].

يتبـدَّى الفولكلـور، إذن، بأنـه الماضـي الحاضر، الـذي ورثنـاه عـن الأجـداد منذ القـدم، ومـا زالت أرواحنا وأفكارنا تتشبَّع به في حاضرنا، أو كأننا وُلدنا ونحـن نحمـل في ذاكرتنا جـزءاً موروثاً مـن الذاكرة الجمعية التي تراكمت عـبر الأجيال، مما يسوِّغ كوننا «نخضـع إذنْ لقوانـين ليسـت لنـا يـد في وضعها، ولا نعـرف مصدرها، ولا لماذا نشأت، أو أين بدأت، وكيف انتشرت وفرضت نفسها؟»[٤].

«تُـرى أليـس رقـم (١٣) هو الرقم الـذي لا يزال مشؤومـاً ومحرَّماً لدى كثير من الناس؟ أليس هناك حتـى اليوم كثير مـن الناس الذين تستحـوذ عليهم أهـواء وإسقاطـات لا عقلانية وأوهـام طفولية؟»[٥]. هـذا المثال وغيره كثير، يُثبت أن التراث لا يزال يتخلل حياتنا المعاصرة، ويتجلَّى في تفاصيل وعادات وتقاليد ومحظورات تصادفنا كل يوم.

سنسعـى عبر الصفحات اللاحقـة أن نتوقَّف عند أمثلة كثيرة ممـا يدخل ضمن دائرة الخرافة، ودائرة العـادات والتقاليد، ودائرة الأسطورة، منها ما وجدنا لـه سببـاً يعود إلى آلاف السنـين، ومنها ما لم نعثر له على سبـب أو تعليـل. لكـن في المجمل، وجدْنـا جزءاً كبـيراً من الخرافات ينـدرج تحت لـواء المحظورات، التـي تحظر فعـل شيء مـا، أو سلوك مـا، أو قول ما، بحجة لا منطقيـة ولا عقلانية، ومع ذلك يستمر تأثير هذه المحظورات إلى يومنا هذا، الذي يسود فيه العلم، ويصبح لزاماً علينـا أن نحتكم إلى العلم، ونختبر كل معتقداتنا بعين العقل والمنطق.

إذا كانـت الخرافـة تعتمد في القسـم الأكبر منها علـى المحظـورات، فإن هـذه المحظورات قـد «دخلت حياتنـا عـن طريقـين: الديـن والعـادات والتقاليـد. وكانت الغاية من فرض هذه المحظورات حفظ النظام وسلامة الإنسان، ومنع عودة العالم إلى حالة الفوضى

١- شوقي عبد الحكيم، مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية، المملكة المتحدة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٧، ص: ٢٩.
٢- سيغمونـد فرويد، أفكار لأزمنـة الحرب والموت، ترجمة: سمير كرم، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٧٧، ص: ٣٧.
٣- شوقـي عبـد الحكيم، مدخـل لدراسـة الفولكلـور والأساطير العربية، ص: ٩.
٤- غسان السيـد، تجليات المقدس في عبـادات الشعوب القديمة، وزارة الثقافـة- الهيئة العامة السورية للكتاب، سلسلة آفاق ثقافية ٢٩، دمشق، ٢٠٢٣، ص: ٢٠٩.
٥- كارل غوستـاف يونغ وآخـرون، الإنسان ورمـوزه- سيكولوجيا العقـل الباطني، ترجمة: عبد الكريم ناصيف، دمشق، دار منارات للنشر، ١٩٨٧.

والخـواء، بالإضافـة إلى ارتباط هـذا الأمر بالجانب الديني لدى الشعوب القديمة. وعلى الرغم من التطور الكبير الذي شهدته البشرية فإننا لا نزال نخضع لهذه القوانـين التحريميـة ... قد يعود ذلـك إلى أن القسم الأكـبر من هذه المحظـورات ارتبـط بالمقدَّس، ودخل ضمـن الكتلة الصُّلْبة مـن هذا المقدَّس. يُضاف إلى ذلك أن قسماً آخر دخل في عادات الشعوب وتقاليدها. ونحن نعرف أن قـوة العادات والتقاليد تكون أكبر من قوة المقدَّس أحياناً، وتحتفظ بها الذاكرة الشعبية من جيل إلى جيل، وتزداد قوتها مع مرور الزمن، والابتعاد عـن تاريخ الحـدث الأساسـي، والدور الـذي يقوم به الخيـال الشعبـي في أسطرة هذه العـادات والتقاليد. وهذا التراث القبلي الغيبي سمَّاه كافكا بالوهم»[٦].

يمكننـا الآن أن نسبر أغوار التراث الشعبي، الذي ينضـح بالخرافـات التي تتزيَّـى إما بلبوس العادات والتقاليـد الاجتماعية، وإما بلبوس الأحكام الدينية، وبدايـة سنتتبـع بعض تلـك المحظـورات التـي تتعلَّق بالمـرأة، وتلـك التـي تتعلَّق بالمـوت، وتلك التـي تتعلَّق بمكوِّنات الطبيعة وأشياء أخرى متفرقة:

١- المحظورات الخاصة بالمرأة:

تعـاني المـرأة، على الرغم مما حقَّقتـه مؤخَّراً مـن نجاحات في مجـال العلم والعمـل، من نظرة اجتماعيـة يغلـب عليهـا التحـريم والتحجيـم والانتقاص، بحجـة طبيعتهـا البيولوجيـة والسيكولوجيـة، والأهـم المـوروث الفولكلـوري الخاص بها، وهـذا ليس جديداً، لأن فهم واقع المرأة الحالي يقودنا إلى الجذور الأولى لاضطهاد المـرأة والنظـرة الدونية لهـا، قد تعـود إلى غواية حـواء لآدم بالأكل من الشجـرة المحرَّمة، ممّا أدّى إلى إخراجهما من الجنّة وبداية حياة الشقاء على الأرض، وكذلـك ابتلاؤها بالحيض وآلام الولادة

٦- غسان السيـد، تجليات المقدس في عبـادات الشعوب القديمة، ص: ٢٠٩- ٢١٠.

ممـا يجعلهـا في أعين البعض كائنـاً نَجِساً يجب الحذر من الاقتراب منها في أثناء ذلك[٧].

واستمرت النظرة الدونية للمـرأة بوصفها الضلع القاصـرة، وناقصـة العقل والديـن، انطلاقاً من بدء الخليقـة. فـ «خلق حـواء من ضلـع الرجـل أسطورة مستقـرة منتشرة بكـثرة على طول الشـرق الأوسط، تؤكـد سيـادة الرجـل الذكـر، منكـرة قدسيـة حواء منقصـة مـن مساواتهـا الرجـل، موحدة بـين المرأة والحية والشيطان والجنية»[٨].

ففي وقـت الحيض أو النِّفاس بعد الـولادة يُحظَر علـى الرجـل الاقتراب من المـرأة، ويُحظر علـى المرأة دخـول المساجـد أو بيـوت العبـادة، كما يُحظَـر عليها لمس كتب الدِّين المقدَّسـة وقراءتها، اعتقاداً بنجاستها وعـدم طهارتها، ممـا يعني أنها في هـذا الوقتين تكون مستبعَدة ومنقطعة كلياً عن زوجها، وعن خالقها، حتى

٧- يُنظـر: غسـان السيـد، تجليـات المقدس في عبـادات الشعوب القديمة، ص: ٢١٧ وما بعد.

٨- شوقـي عبـد الحكيم، مدخـل لدراسـة الفولكلـور والأساطير العربية، ص: ١١٧.

عـن مجتمعها من خلال منع المـرأة الحائض من زيارة أخـرى نفسـاء، كيلا يجتمـع رِجسان في مـكان واحد، وظناً بأن اجتماع دم الحائض مع دم النفساء قد يُؤذي الطفـل الرضيع، أو قد يُؤذي الأم بأن يجفَّ حليبها. كل ذلك يعكس خطـورة الدم والحيض في الثقافة الشعبية والاجتماعيـة مـن جهـة، ويساعـد على تحجيـم مهام المرأة، وزيادة المحظورات التي تضيِّق الدائرة حولها.

وهـذه النظـرة، كمـا ذكرنـا، ليسـت حديثـة، وإنمـا كانت ترجـع إلى المجتمعات البشريـة البدائية والطوطمية، «علـى اعتبار أنها منبـت الخطيئة الأم، كذا شملها التحـريم أو الحرام أو الحريم أو الحرمة، فاعتُـبِرت من المُحرَّمات، وربط التابو بين النظر إليها والخطيئة على اعتبار أن العين تزني»[٩].

ومـن هنـا جـاءت تسميـة المـرأة في اللهجـة المحلية بالحُرْمـة، والحُرَيْمَة، أي أن معنـى الحرام والتحريم قد أصبح مسمّى ووصفاً لها طوال الوقت، فتغدو اللغة شريكة في ظلم المرأة جنباً إلى جنب مع المجتمع والموروث.

٢- المحظورات الخاصة بالموت:

لم يفلـت الإنسان الميت مـن موضوع التحريم، وإن كانـت درجة التحريم تختلف مـن مجتمع لآخر، إلا أن مبدأ التحـريم ثابت لدى المجتمعات كلها، إذ تعدُّ جثة الإنسان بعد الموت دنسة، لا يجوز لمسها أو النظر إليها، ولهذا فإن على الجماعة التخلص منها بأقصى سرعة ممكنة. وأعتقد أن الكلمـة التي نسمعها في الجنازات (إكرام الميـت دفنه)، قد جاءت منزاحـة عن الأصل (إكرام الحي دفن الميت بسرعة)»[١٠].

إن الإسراع في دفن الميت، وتحريم لمس جثته، عادة شائعـة ليس لأنهـا دنسة من وجهة نظـر أهل الجبل، وإنمـا نتيجـة تحقـير الجسد بعـد أن تغـادره الروح. ولذلـك درجت العـادة في مجتمعنـا أن يُدفَن الأموات خـارج القرية في مـكان قصيّ، ويُمنع اقـتراب الناس من المقبرة، وكذلك تُمنَع زيارة الأموات والبكاء عليهم عند القبر، فبمجرد موت الإنسان يفقد الجسد قيمته.

في مقابـل ذلك نجد بعض الأسر والعائـلات تبجِّل فقيدهـا، ولا سيمـا إذا كان الجـد أو الأب، فتحرص أن تدفـن جثته في الأرض المحيطة بالمنزل، من قبيل المبالغة باحترام جثمانـه والتبرك به، والبرّ بـه حتى بعد الموت، وهـذا ليس غريباً إذا ربطناه بمـا جرت عليه العادة عند الساميين الأسلاف من دفـن موتاهم من الأجداد معهم في منازلهم، وكان ذلك من قبيل عبادة جثمان الأسلاف، أو التابـوت، وربما من هنا كان الاشتقـاق لكلمة «تابو» أو الشيء المحرَّم أو الحرم من تابوت العهد[١١].

-أما المرأة الأرملة التي مات زوجها، فتدخل دائرة المحظـورات أيضاً. من خلال عـزل نفسها عن العالم، وإعلانهـا الحـداد الطويل كرمى زوجهـا، ويكون ذلك بالتزامها البيـت مدة سنة كاملة، لا تغادره ولا تشارك في مناسبة فـرح ولا مباركات ولا زيـارات عائلية، كما يُفرض عليها ارتـداء اللباس الأسود، والابتعاد عن كل مباهج الحيـاة والزينة والألـوان والضحك وممارسة النشاطـات الاجتماعية المعتادة. إن عزل المرأة الأرملة ليس ظاهرة خاصة في مجتمعنا العربي فحسب، وإنما ظاهرة سائـدة في بعض القبائل الهنديـة والإفريقية، ولـدى الشامسـواب في كولومبيا البريطانيـة، وقبائل أمريكا الشمالية، وبعض الجـزر الفليبينية[١٢]، نتيجة اعتقـاد هذه الشعـوب بأن لعنة الميـت تظل تحوم حول بيتـه وزوجته، ولذلك يجب الابتعاد عنهما كيلا تصيب من يقترب منهما.

ومـن المحظـور أيضـاً أن يـزور الرجـل أو المـرأة العائدين من مأتم أو جنازة بيت أحد ما مباشرة، وإلا كان ذلك شؤمـاً عليه، بمعنى أنه يجلب له لعنة الموت، فيتسبَّب بموت أحد من أهل البيت أو الأقارب.

٩- نفسه، ص: ١٥٨.

١٠- غسان السيد، تجليات المقدس في عبادات الشعوب القديمة، ص: ٢٢٨.

١١- يُنظـر: شوقـي عبـد الحكيـم، مدخـل لدراسـة الفولكلـور والأساطير العربية، ص: ١٨١.

١٢- يُنظـر: غسـان السيـد، تجليات المقدس في عبـادات الشعوب القديمة، ص: ٢٢٠- ٢٢١.

كل تلك المحظورات التي ترتبط بالميت وبأهل بيته، تعـود إلى أن الموت حدث تخالجه الأسـرار، وما يزال إلى اليوم سراً عصيـاً عن الانكشاف والفهم، لذا من الطبيعـي أن تُعقد حوله الأوهام والمخاوف التي تحاول صده أو إبعاد خطره.

٣- الخرافات الدارجة حول الأطفال:

-**قص أظافر الطفل:** يُحظَر قص أظافر الطفل حديث الولادة حتى يبلغ أربعين يوماً، ويجب أن تضع الأم قطعة نقود في يده قبل القص، كيلا يصبح بخيلاً عندما يكبر، ثم تُوهب هذه النقود للمَزار حسنة عن الطفل.

-**قص شعر الطفل الرضيع:** يُحظر إتلاف الشعر المقصوص للطفل الرضيع، أو رميه في القمامة، وإنما يجب وضعه تحـت شجرة أو نبتة زينة (زريعة)، وكأن هـذا الفعل من قبيل ترسيخ علاقة الإنسان بالطبيعة، وأنه جزء منها، وكل شيء فيه عائد إليها.

- **فكّ شِرْكَال[١٣] الطفل:** تأتي هـذه العادة من قبيـل استعجـال الأهل أن يمشـي الطفل باكـراً، وأن يباركـوا أولى خطواتـه، إذ ينتظـرون أن يظهر القمر هـلالاً، ويُخرجـون الطفـل إلى ساحة البيـت، ويقوم عـادة الجـد، أو مـن هو أكـبر سناً، بربـط خيط بين إبهامي قدمي الطفل، ويقول:

اللّه يهلَّك ويستهلَّك، ويجعلك هلال مبارك، هلِّينا هلالك، وقطعنا شِرْكَالك.

ثـم يقصُّ الخيـط، ويكون ذلـك إيذانـاً باقتراب موعد مشي الطفـل، أو اعتدال خطواته إن كان يخطو بعض الخطوات.

يمثِّل انتظار الهـلال، وقراءة هذه العبارات وقص الخيـط قبالته، تبجيلاً للهلال، وإحياء لما درجت عليه أغلـب المجتمعات البدائية التي عبـدت القمر كأسمى آلهة ثلاثيـة أطلقوا عليها اسم «نجم» وعند الساميين «هلال»[١٤].

- **نـوم الأطفـال عند العتبـة:** يُحظر على الأطفال أن يناموا عند عتبة المنزل أو الغرفة، اعتقاداً بأنه تقبع هناك أرواح شريرة قد تؤذي الأطفال وتذهب عقلهم.

١٣- شـركال: مـا تربط به رجل الإنسـان أو الحيوان، يقال: انفك شركالـه: أي أطلـق سراحـه... ينظـر: معجم الألفـاظ والتعابير المحكيـة في محافظة السويـداء- معجم لهجي فولكلـوري مقارن، قاسـم وهب، دمشـق، منشـورات وزارة الثقافـة- مديرية التراث الشعبي، ٢٠٠٩، ج١، ص: ٤٤٠.

١٤-شوقـي عبد الحكيـم، مدخل لدراسـة الفولكلـور والأساطير العربية، ص: ٨٠- ٨١.

و«قد كانت القبائل الجاهلية من «الحمس» أو الأحامس... المتشدِّدين في دينهم- المتحمِّسين، كان هؤلاء الأحامسة يعزفون عن المرور تحت عتبات البيوت، لذا اخترعوا ودخلوا البيوت من فتحاتها الخلفية... ويبدو أنها فكرة تضمينية أسطورية متوارثة منذ السومريين.

كما أن منها الربط بين الخطايا ومداخل البيوت وأعتابها في الميثولوجيا المسيحية: «خطيئة رابضة عند الباب، وإليك اشتياقها» «[١٥].

وهناك سلوكات كثيرة تدلّل على مدى تخوفنا من العتبة، مثل العبارات التي نقولها حينما يدخل أحدنا بيت أحد ما، فإنه يتلفَّظ بألفاظ وتعبيرات وتعويذات مثل: يا ساتر- يا أهل الدار- دستور، ظناً بأن ذلك يحمي الإنسان الضيف ويجعله في مأمن من الشر الكامن في عتبة البيت، أو لأن العتبة مقدَّسة لا يجوز عبورها دون تلاوة تعويذات[١٦]. ومردُّ ذلك إلى أن كلمة (بيت) كانت تعني قديماً: المعبد، واستمر المعنى القدسي مرافقاً الكلمة، وإن أصبح للمعابد أبنية خاصة وتسميات متنوعة، بتنوع الأديان والمناطق واللهجات.

وقد استمرت هذه الطقوس والعادات التي تضفي على العتبة / الوصيد هالة من الخوف و التقديس من خلال الالتزام بدخول البيت بالقدم اليمنى حصراً، أما القدم اليسرى فغير مستحب الدخول بها، وإلا كان ذلك تجاوزاً لقدسية العتبة أو قلة احترام وفأل شؤم.

إن تفضيل جهة اليمين على الشمال ليس حديثاً، أو حكراً على منطقتنا، وإنما يعود إلى عهد الشعوب السامية، إذ نلحظ في «روافد اللغات السامية تقديس جهة اليمين، التي أطلقوها ليس فقط على اليمين، بل على ما هو واقع على يمين القبلي، ولذلك شملت تسمية اليمن الشام بأسره، ومنها تواتر أهل اليمن واليُمن والميمنة»[١٧].

-**حماية الطفل من العين**: ويكون ذلك بوضع خرزة زرقاء على صدره، أو إلباسه أسورة زرقاء، أو قطعة ذهب على شكل كف يد توضع على صدر الرضيع أو على يده، لحفظه من العين الحاسدة. «يبدو أن أماكن التزيين بالحلي والاحتفاء عامة بالأشياء، وهو ما يتبدى أكثر عند النساء والأطفال، مثل العنق والأذن والأنف والجبهة والصدر، كانت أماكن لشعائر ورُقى وأحجية وتعاويذ ومنفِّرات؛ اعتقاداً فيما يكمن فيها من قوى سحرية خفية، تجلب البخت والسعد، وتطرد النحس والشؤم، فالساميون من العرب عبدوا الأشياء من تمائم وأحجار وشجر ونبات وجبال ووهاد، اعتقاداً فيما يكمن ويسكن هذه الأشياء المادية من قوى غيبية»[١٨].

«ومعتقد الخوف على حياة الأطفال حديثي الولادة وأمهاتهم النفساوات منتشرة بكثرة في فولكلور شعوب العالم القديم، وكان العبريون واليهود والرومان والجرمان يعتقدون في مقدرة «روح الحديد» على طرد هذه الأرواح الشريرة»[١٩].

فلا غرابة، إذن، باستمرار هذه الاعتقادات ورسوخها في ثقافتنا إلى اليوم، ولاسيما حين يتعلَّق الأمر بالخوف على صحة الطفل وحياته.

٤- خرافات حول العرس والزواج:

-**يُحظَر تزويج عروسين وزفافهما معاً في بيت واحد في الليلة نفسها**، كأن يتزوج أخوان في الليلة نفسها، لأن ذلك يُؤذي إحدى العروسين، فيقال في اللهجة العامية: «إحداهما تكبس الأخرى»، أي إحداهما تنجب والأخرى لا، انطلاقاً من الاعتقاد

١٥- نفسه، ص: ٧١.

١٦- ينظر: غسان السيد، تجليات المقدس في عبادات الشعوب القديمة، ص: ٢٣٥.

١٧- شوقي عبد الحكيم، مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية، ص: ١٧٩.

١٨- نفسه، ص: ١٠٣.

١٩- نفسه، ص: ١١٧.

بـأن دم البكارة أيضـاً نجس وله خطورتـه وتأثيره، وعليـه لا يجوز جمـع دم مع دم في مـكان واحد. وإن كانـت هذا الاعتقـاد لا يستند إلى سبـب منطقي أو علمـي، فإنَّ التجـارب على مر السنـين أثبتت صحة هذا الحظر.

-**يُحظَر الجلوس على فراشين**: من السلوكات المكروهـة اجتماعيـاً أن يجلس الرجـل أو المرأة على فراشـين، أي عنـد التقـاء فراشـين، ظناً بـأن ذلك فأل بأن هـذا الشخص سوف يتـزوّج مرتين، أي كما يقولـون باللهجة العاميـة: سيجدِّد فراش الزوجية. وعليـه يسارعـون إلى تحذير من يفعل ذلـك دون أن ينتبـه، بـأن يبتعد عن حافة الفراشـين، ويستقر على أحدهما فقط.

-**سقوط خاتم الخطبة أو الزواج**: يُعدُّ سقوط خاتم العروس أو العريس في أثناء حفلة الخطبـة أو الزواج علامة شؤم، إذ يُؤذِن بانفصال العروسين بعضهما عن بعضٍ، أو عدم التوفيق في حياتهما الزوجية.

٥-خرافات في أشياء متفرِّقة:

-**تحضـير الكحل العربي**: مـن الطقوس الشعبية الدارجـة في تحضـير الكحل العربـي، والتي لم نعرف لمَ حُدِّدت شروط تحضيرها على هذا النحو، ولا تبيّنّا سببهـا، إذ يُشـترط أن تدقّ حجـر الرصاص (حجر الكحل) امرأة هي البِكْر لوالديها، وأن تدقَّه على مدار سبعة أيـام متتابعة، وأن تبدأ ذلك يوم الأحد حصراً. فمـا نستطيع ملاحظتـه أن هـذه العادة تُـولي عناية للرقـم واحد في أيـام الأسبـوع والأولاد، وللرقم سبعة الذي ينال حظاً وافراً في التراث الديني والاجتماعي، فالله خلق الكون في سبعـة أيام، وأيام الأسبوع سبعة، كما أنه يستخدم للدلالة على التكثير والمبالغة.

-**طـي الشراشـف والأغطيـة وترتيبهـا**: درجـت العـادة في زيارات النسـوة لبعضهن بعضـاً، أن تقدِّم صاحبـة البيـت غطـاء أو شرشفاً للضيفـة كي تضعه علـى رجليهـا فتجلس جلسـة مريحة لا إحـراج فيها، وعنـد انتهـاء الزيارة لا يجـوز للضيـوف أن يرتّبوا أو

يطوا الأغطيـة إذا كان في البيت فتـاة، لأنه ذلك فأل بعنوستهـا وعدم زواجها في المستقبـل، وكأن ذلك من قبيـل تمرين الفتاة نفسيـاً وجسدياً على تحمل أعمال المنزل والترتيب.

-**قص الأظافر ليلاً**: مـن العـادات المكروهـة والمنبـوذة في منطقة جبل العرب قص الأظافر ليلاً، بحجـة أن العروس تغضب وتحـزن إن حدث ذلك، ولا نـدري مـا علاقـة العروس بذلـك، وربما، مـن وجهة نظرنـا، أن عمـل المقص يـؤدي إلى القطـع والإيذاء والفصـل، وهذا ما يُغضـب العروس التي لا تريد لهذه الأحـداث أن تعكـر صفو ليلتهـا الأولى، فحدوثها فأل شؤم يوحي لها بانقطاع علاقتها الزوجية أو انفصالها عـن زوجها مستقبلاً. علمـاً أن قص الأظافر ليلاً من الناحيـة الطبيـة غير مستحـب، لأنه يسبِّـب هشاشة العظام، ويزيـد الالتهابات العظمية والمفصلية، ويؤثِّر سلباً في مخزون الكالسيوم في الجسم، فالأفضل قص الأظافر نهاراً.

-**نقـوط الطفـل**: درجـت العادة في جبـل العرب أن يقـدَّم مبلغ من المال للطفـل الرضيع ما دون السنة عندما يزور برفقة أمه بيتاً للمرة الأولى، وإن أبت الأم أخـذ المبلـغ، يُقال لها: يجـب أن تأخـذي النقوط وإلا فسيسرق بيض دجاجنا حين يكبر، أي إنه إن لم يأخذ هـذا المبلغ وهـو صغير فسيأخـذه سرقـة وعنوة حين يكبر. ربما درجت هذه العادة من أجل رفع الحرج عن الأم، ورغبة في مساعدتها وضمان الترابط الاجتماعي بين أفراد المجتمع، فالنقـوط وجه من وجوه المساعدة الماديـة في حـالات الزواج والـولادة والإعمـار، أي في الظـروف الصعبـة التي يكـون فيها الإنسـان بحاجة لمساعدة الآخرين.

-**أسـبوع خميس البيضـات**: خميـس البيضات هو يـوم الخميس الـذي يسبق عيد الفصـح الذي يحتفل بـه المسيحيون في شهـر نيسان، وفيـه تحرص النسوة علـى سلق البيض لأبنائهن، وتلوين هذا البيض بألوان مختلفة، ويفرضن على أطفالهن تناول هذا البيض في هذا اليوم وإلا أُصيبوا بالجَرَب.

أما يوم الاثنين من أسبوع خميس البيضات، فكان يُسمَّـى: ثنينـة التعسيـف، إذ تقـوم النسـوة بتنظيف البيت كلـه، وتعريض أثاثه لأشعة الشمس. وبعد اثنين التعسيـف يأتي ثلاثة المَذَرِيّـة، الذي تمتنع فيه النسوة عـن كناسـة البيت، ظنـاً بأن ذلـك يجعل الـذّر (أي النمـل) يملأ أرجاء البيت. وعند المساء يذهب أطفال القرية إلى الحقول والكـروم لجني زهر البراقطة أي زهـر الأقحوان، وحين يعودون تنقع الأمهات ما جمعوه مـن زهـر في طست تحـت ضـوء القمر طـوال الليل، حتـى إذا جاء فجـر الأربعاء؛ أربعـة البراقطة، وجب على الأطفـال أن يغسلوا وجوههم بهذا المنقوع قبل أن تغسل الحيات (الأفاعي) وجـوه صغارها، وإلا أُصيب الأطفال بالرمد في عيونهم.

٦- خرافات طبيَّة:

-**وضـع مفتـاح مـن الفضّـة علـى الرأس**: مـن العلاجـات الشعبية الرائجة لوجـع الرأس أو الشقيقة أن يضع الإنسان مفتاحاً مصنوعاً من الفضة، ويربطه بقطعة قماش (عَصْبَة) على الرأس، وهذا الأمر ليس خرافـة، وإنما عـلاج صحيح، ذلـك أن الفضة جيدة في امتصاص الطاقـة السلبية من جسم الإنسان على عكـس الذهب، ومفيـدة في التحكم في الدورة الدموية في جسم الإنسان، وتنظيم ضغط الدم، وتنظيم عملية التمثيـل الغذائـي في الجسم، وغير ذلـك من الفوائد العلاجيـة المعروفة منـذ القديم. مما يخفِّـف التوتر، ويزيـل الآلام، كمـا أنـه المعـدن الأفضل مـن الناحية الدينية. لكن لا نعلم ما دلالة المفتاح بالتحديد.

-**طاسـة الرَّعْبَـة**: مـن العلاجـات الشعبية لحالة الخـوف من شـيء مـا، أو الهلع عند رؤيـة حادث ما، أو حيوان مخيـف، أن يشرب الخائف مـاء من طاسة تُسمَّى بطاسة الرعبة مكتوب عليها آيات قرآنية، فالماء المسكـوب في وعاء محفور عليه آيات قرآنية واسم الله

تعالى يُهدِّئ من روع الخائف، ويزيل عنه الخوف، وما يتبع ذلك من أمراض مثل البكم والعقم وغيرها.

-**وضع المقص تحت المخدة ليلاً**: درجت العادة أن يُعالج الإنسان أو الطفل الذي يرى أحلاماً مزعجة أو مخيفة وهو نائم ليلاً، بأن يضع تحت مخدته مقصاً، وكأن هذا المقص المصنوع من الحديد فيه طاقة قوية تكفُّ شر الأحلام والأرواح الشريرة عن رأس هذا الإنسان، وتقطع دابر هذه الأحلام.

-**معالجة الثآليل (الفلول باللهجة المحلية)**: الثؤلول أو الفلول حبوب تظهر في جسم الإنسان، وتتكاثر نتيجة الإصابة بعدوى فيروسية، ويكون الثؤلول الأول بمنزلة الأساس أو الأم للثآليل اللاحقة، أكثر ما تظهر على الأصابع واليدين والقدمين، والاعتقاد الشعبي الشائع أن ظهورها يعود إلى محاولة الطفل أو الشخص المصاب عدّ النجوم ليلاً، والإشارة إلى النجوم مباشرة بأصابع اليد، مما يؤدي إلى ظهور هذه الثآليل كانتقام النجوم منه، وكأن النجوم كائنات مقدَّسة لا يجوز عدُّها أو التأشير عليها.

ولها علاجات كثيرة هذه الأيام مثل الكي والليزر والمراهم والأدوية، لكن فيما يخصُّ الطب الشعبي، فإنه درجت العادة أن تُعالج الفلول بذهاب الإنسان المريض إلى بركة الماء في القرية، التي عادة ما تكون في وسط القرية، «نظراً لأن الساميين بعامة قدَّسوا موارد المياه، واعتبروها مهبط عرش الله»[٢٠]. وعليه أن يأخذ معه حفنة من العدس، ويرميها في البركة، ثم يعود، وربما اختير العدس للشبه بين حباته وحبات الفلول، ويُشترط ألا يكلِّم المريض أحداً لا في أثناء ذهابه ولا في أثناء عودته، ويُقال: إنه كلما ذابت حبات العدس في الماء تلاشت حبة من الفلول معها، وهكذا إلى أن تذوب جميعاً فيشفى المريض تماماً.

وهنا الأهمية في هذا العلاج لبركة الماء بالدرجة الأولى، والصيام عن الكلام، وارتباط مكونات الطبيعة بجسم الإنسان.

٧- الخرافة واللغة:

لا بد أن نتفق بداية على أن الخرافات إما أن تترسَّخ عبر اللغة، وإما عبر السلوك أو الطقوس، وإذا كنَّا قد توقَّفنا فيما سبق عند نماذج من الطقوس والأوهام المتوارثة، فإننا في هذا الحيز سنستعرض

٢٠- شوقي عبد الحكيم، مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية، ص: ٣١.

بعض المقولات والعبارات اللغوية التي تزخر بالخرافة المتوارثة، وما زلنا نتداولها يومياً دون أن نعي أصولها القديمة، ومخزونها الدلالي العميق. «فكما يقول مالينوفسكي: فإن اللغة- أية لغة- لا تلعب فقط دور الحارس والحامي للأسطورة والأديان بعامة، بل إن اللغة في حد ذاتها لعبة الحكم والحافظ الأمين على الأوضاع الطبقية والاجتماعية»[٢١].

-يمكننا أن نتوقف عند أولى تلك المقولات، التي تتجسَّد فيها الطوطمية الاجتماعية، التي تدعو إلى التعاون المتبادل بين أفراد العشيرة الواحدة، المثل الشعبي القائل: «أنا وخيّ على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب»، و«الدم بعمرو ما بيصير مي»، «في بينّا خبز وملح». هذه الأمثال الشعبية جميعاً تنطق بلسان المجتمع الطوطمي البدائي الذي يحضُّ على أواصر التعاون والتضافر بين أفراده في مواجهة المجتمعات الأخرى الغريبة.

وكذلك المثل القائل: «الغريبة ذيبة»، أي الزوجة الغريبة التي تكون من خارج القبيلة أو العائلة تكون ذئبة، أي إنها تأخذ حقها بشراسة كشراسة الذئب، أو بمعنى أنه لا يؤتمن جانبها، ولا تكون معاملتها لأهل زوجها وأقاربه رحيمة.

-«بعل أو مردوخ خالق الأرض والإنسان، مردوخ والزهرة من المعبودات البابلية التي انتشرت عبادتها في بلاد العرب جميعاً[٢٢].

- قولهم: أرض البعل، أو الثمار البعلية: نسبة إلى الإله بعل، الذي «عُبِد وكان له صنم. ومقصد هذه العبارة أن هذه الأرض لا تُسقى من المطر ولا رياً بآلة، وإنما تُسقى من عين مختبئة تحت الأرض، ولذلك تأتي بأبرك الثمار. فبعل هو إله الخصب والزراعة»[٢٣].

-قولهم: «يحوطك الجد»: نسبة إلى «الإله جد أو جاد كان من آلهة القبائل الثمودية المندثرة قبل منى أو مناة، وكهل ... إلخ. ومن اسم جاد تسمَّى الإله «بعل جاد» عند اليهود والآراميين والعرب الشماليين في سورية، وكان يُعرف بإله السعد والحظوظ والمستقبل عامة. ومن هنا يأتي ارتباطه بالآلهة الدهرية والقدرية»[٢٤]. مما يعني أننا ما زلنا نتداول أسماء آلهة القبائل القديمة والمندثرة على الرغم من اختلاف العقائد.

-قولهم: «دربك خضرا»، و«يدك خضرا» أي خضراء، و«وجهك أخضر»: نسبة إلى الخُضر، إذ تنفرد إحدى أساطير «الخضر» معلِّلة السبب في أن الخضر حي خالد لا يموت: لأنه هو الذي قام بدفن جثمان آدم. والخضر أو الرجل الأخضر هو الذي قال عنه الرب في العهد القديم: «أنت الخضر، وكلما مست قدماك الأرض اخضرت»[٢٥].

-رؤية الغنم غنيمة: لأن الأغنام مباركة على عكس الماعز، لأن الأولى، حسب الروايات المتوارثة، حين هربت السيدة سارة من إبليس والأشرار احتمت بقطيع من الماعز، فأبت الماعز مساعدتها، وحين احتمت بالأغنام التفت حولها وأخفتها عن عيونهم، فحينها دعت السيدة سارة للأغنام بالستر عليها كما سترتها، فتدلّت ليتها لتغطي عورتها، ودعت على الماعز بالفضيحة، فبقيت عورتها مكشوفة.

وليس غريباً أن نتفاءل برؤية الأغنام وغيرها، لأن العرب قديماً كانت تتفاءل بالحيوان»[٢٦].

-**تعشير الأبقار والدَّوابّ:** يُقصَد بالتعشير الحَمْل عند إناث الدواب، ولم يأتِ اختيار هذا اللفظ بالتحديد عبثاً، وإنما جاء نسبة إلى عشتار أو عشتروت، إلهة الخصوبة التعشير، فـ «من اسم

٢١- نفسه، ص: ١٦٠.

٢٢- ينظر: محمد عبد المعين خان، الأساطير والخرافات عند العرب، وكالة الصحافة العربية- ناشرون، ص: ٦٦.

٢٣- يُنظر: نفسه، ص: ٦٩.

٢٤- شوقي عبد الحكيم، مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية، ص: ٩٦.

٢٥- ينظر: نفسه، ص: ٩٥.

٢٦- عز الدين إسماعيل، المكونات الأولى للثقافة العربية، shiabook. Net . ص: ٦٤.

آلهـة الإخصـاب الجنسي للناس والبهائـم عشتار، تواتر عشـار وتعاشـرة وعشرة وعشـيرة»[٢٧]. وهكذا تبدو اللغة الفصحـى واللهجات المحلية غير بريئة من بصمـات الفولكلـور والتراث الخرافي الـذي يعود إلى أقـدم شعوب هذه المنطقة، وهذا أمر طبيعي، بالنسبة للغة عمرهـا آلاف السنين، عاصـرت شعوباً مختلفة، تـرك كلٌّ منها بصمته وخصوصيتـه ونظرته الخاصة للكون وللغيب وللحياة.

ولما كانـت «اللغة مجموعة مترابطة مـن الأوضاع الكلاميـة التـي تراعيهـا وتتوارثها جماعـة معينة في الـكلام، فالجماعـة أو المجتمع أو البلـدان التي تتكلم لغة معينة، مثـل الفصحى أو عامياتهـا، يعتبران معاً –الجماعة واللغة– من أهم ملامح البناء الاجتماعي، فهناك علاقة حميمة أو متكافئة بين البناء الاجتماعي واللغة»[٢٨]. لذا يمكننا رصد مدى التماهي بين طريقة تفكير المجتمـع، وأساليب اللغة من تشابيه واستعارات وكنايـات، يتجلى ذلك مثلاً، في المثـل الشعبي: الحية مريَّة، أي الحيَّة امرأة.

يمكـن تفسير هـذا التشبيه بالعـودة إلى أسطورة الخلـق التي تقـول: «أما زوجتـه حواء فيشـير اسمها إلى الحيـاة والحيوات، وبما أن حـواء كانت قد جلبت الخطيئـة الأولى، وما أعقبها من طـرد من الفردوس أو جنـة عدن نتيجـة لتوحدها بالحية، وهـي المخلوقة الوحيـدة المستأثرة بالحياة والحيـوات نتيجة لقدرتها على تجديد جلدها ... «[٢٩].

هـذه الأسطورة تُرسِّـخ تهمة الخطيئـة الأولى للمرأة وللحيـة، وتُقِرُّ لهما القـدرة على تجديد الحيـاة وضمان استمرارهـا، المـرأة بقدرتهـا علـى الحمـل والإنجـاب، والحيـة بقدرتها على تجديد جلدها. من هنا غدت صورة الحية مقترنة بالمرأة عند رؤية الحية في المنام وفي فنجان القهوة، وفي الأمثال الشعبية، وفي النعوت الخاصة بالمرأة.

٢٧–شوقـي عبد الحكيـم، مدخل لدراسـة الفولكلـور والأساطير العربية، ص: ١٨٠.

٢٨– نفسه، ص: ١٨٣.

٢٩– نفسه، ص: ١٧٥.

-بعيد الشر، بعيد من هون (أي هنا) سبع مرات، كشْ بَرَّا وبْعيد:

كثيراً ما نسمع مثل هذه العبارات على ألسنة الناس، في مختلف الأحاديث والمناسبات والأماكن، فغالباً ما تُقال: بعيد الشر، حين الحديث عن مرض أو موت أو حادث مؤلم، من أجل استبعاد حصول هذه الأمور مع من يتحدثون معه أو عنه. وتُقال: بعيد من هون سبع مرات، في سياق الحديث عن الموت، الذي يثير الهلع في النفوس، فيقولون هذه العبارة منعاً لاستحضاره أو التعجيل بحلوله في هذا المكان، واقترابه من الناس الحاضرين، ونلحظ مرة أخرى دلالة الرقم سبعة، الذي يفيد هنا التكثير، وكأنهم يطلبون إبعاد الموت كثيراً كثيراً. أما العبارة الأخيرة، فكلمة كش: أصلها للدجاج بمعنى ابتعد، برا وبعيد: أي اخرج بعيداً، وتُقال هذه العبارة في أثناء ذكر الجن والشياطين، من أجل إبعاد هذه الأرواح الشريرة عن المكان.

نلحظ من هذه العبارات أن الإنسان يلجأ إلى اللغة بوصفها حارساً وسلاحاً يستحضره في كل موقف وحديث، وكأن للغة سراً في مواجهة المخفي والمخيف والمجهول، وهذا ما يفسِّر كثرة الرُّقى والتعويذات.

في ختام استعراضنا لجملة أوهام وسلوكات خرافية سائدة في منطقة جبل العرب، نستطيع أن نقبض على أهم سماتها، فمنها ما هو خاص في هذه المنطقة حصراً، ومنها ما هو مشترك بين هذه المنطقة والمنطقة العربية عامة، ومنها ما هو حديث نسبياً، ومنها ما هو قديم قدم الشعوب التي قطنت المنطقة العربية، ومنها ما هو قابل للتفسير والفهم والتأويل، ومنها ما هو مجرد خرافة أبعد ما تكون عن المنطق والعقل، ومنها ما لا يتعدى إطار الوهم والسذاجة، ومنها ما يستمد قوته وصحته من التجربة التي تدلِّل على ضرورة الالتزام بما توارثناه عن الأجداد. لكن، في المجمل، يبقى هذا الجانب مسيطراً على الثقافة الشعبية، يستمد استمراريته من كثرة تداوله واستقراره في الذهنية الشعبية، التي لا تفوت فرصة أو مناسبة أو حديثاً إلا وتستحضر مثل هذه المعتقدات والأوهام والخرافات، وكأنها حقائق يقينية، مما يجعل تجاوز هذا الموروث أمراً صعباً.

من التراث الحضري الشعبي الشفوي في اللاذقية

ندا حبيب علي

تعد مدينة اللاذقية مدينة آبدة خالدة على مر الدهور ودرّة على شاطئ المتوسط، وهي الوريثة الشرعية لمدينة أوغاريت العظيمة، إذ كانت اللاذقية حينذاك مجرد قرية يسكنها الصيادون تقع إلى الجنوب من القريب من مدينة أوغاريت تلك.

ولئن امتاز الساحل السوري بوجود اللاذقية كمرفأ بحري تجاري عريق وثغر باسم أول لها ومحط أنظار البحارة والبواخر التي تجوب البحر المتوسط من الشرق حيث اللاذقية إلى موانئ الغرب وصولاً إلى الشواطئ الأوروبية والأمريكية والإفريقية لئن كان ذلك إنَّ اللاذقية هذه تمتاز أيضاً باسمها المضاف إليه وهو اللاذقية التي على البحر؛ إذ تقوم العديد من المدن التي تحمل اسم اللاذقية في بر بلدان وأقطار عديدة.

وتحمل اللاذقية اسماً تتعدد تفسيراته وتأويلات معناه، فمن قائل بأنه اسم والدة الملك سلوقس نيكتور أحد قواد الإسكندر الكبير أو الإسكندر المقدوني الذي تقاسم مع زملائه القادة الآخرين الإمبراطورية الهيلنستية التي أسسها الإسكندر، وجمع فيها حضارة

الغـرب وحضـارة الشرق معـاً تنفيـذاً لتوصية معلمه الفيلسـوف اليوناني العظيم أرسطـو، وهذا ما تظهره لفظة الهيلنستية نفسها باعتبارها مندمجة من كلمتي هيلين وهي جدة الإغريق، وإيست وتعني الشرق.

ومـن قائـل بأن هـذا الاسم قـد استمـر في العهد الروماني باسم لاواديسا أو لاوزكيا ثم باسم لاليش أو لاليش الكبرى في العهـد الصليبي، وهم أحفاد أولئك الرومان.

أمـا الاحتمال الأرجـح الآخر في تسميـة اللاذقية فهو أنها لفظة مندمجة مركبة من لفظتي اللات وقيّة، واللات هي ربة عبدها عـرب الجاهلية قبل الإسلام، وقـد ورد اسمها في القـرآن الكريم، وقيّـة وهي لفظة تعني الماء اللزج البطيء الحركة، ومنها لفظة القيء.

و في أعـالي جبـال اللاذقيـة مقـام مقدس قديم باسـم النبي بلات، يقـع في أقصى الشرق من الجبال المحيطـة بقريـة المزيرعة، هو اسـم يتطابق في جذره ومقطعـه الثـاني مـع أسمـاء عـدة قـرى وأماكن في محافظـة اللاذقيـة، ومنهـا قرية الجريمقيـة شرقي مدينـة اللاذقيـة والدروقيـة الواقعـة شمـال المدينة والسفرقية الواقعة إلى الجنوب الشرقي من اللاذقية وقريـة اللودقية التابعة لمنطقة جبلـة إضافة إلى قري مرقيـة الفاصلة مـا بين منطقتـي جبلـة وبانياس في محافظتي اللاذقية وطرطوس.

إن نسبـة المدينة للماء أمـر مرجح ومعلل، إذ تكثر عيـوب المـاء فيها حتـى لتكاد تبـدو كأنهـا بنيت فوق بحيرة ماء عذبة.

ومـن كثير تلك العيون يُذكر عين أم إبراهيم وعين التمرة وعين سندلكس ونبع أبو دهيبة إضافة إلى اسم العوينـة، وهو حي قديم حمل هـذا الاسم نظراً لكثرة عيـون الميـاه والينابع فيه مـع وجود احتمـالات أخرى شائعة.

هـذا وثمة أسماء أخرى أقدم عهداً حملتها مدينة اللاذقيـة منها يا ريموتا ثم راميتا وهـي تسمية تعني الإلـه يضرب من الأعلـى على حد قول ذلـك الراعي الـذي مـات بسبـب سقـوط صاعقـة عليه كمـا تقول الأسطورة حيث قال: «الإله يضرب من الأعلى».

كمـا حملت اسـم جوليا في العهـد الروماني، وهو اسم زوجة أحد الأباطرة الرومان.

يظهر تاريخ اللاذقية من خلال التاريخ العمراني فيهـا، فالمدينـة منقسمـة مـا بـين المدينـة القديمـة والمدينـة الجديدة، ومـن أهم الأحيـاء القديمة تذكر أحياء الصليبـة والقلعة والعوينـة والعنّابة والأشرفية والكامليـة، وهـي أحيـاء تمتـد إلى الجنـوب والغرب مـن المدينة، بينما تمتد الأحيـاء الجديدة نحو الشرق والشمـال، ومنهـا أحياء السجـن والفاروس والرمل الشمالي والمنتزه وغيرها.

تبدو المدينة القديمة التـي يتم الحفاظ عليها إلى حد مـا ذات هندسة وتخطيط عائـد للعهود اليونانية والرومانية حيث الشـوارع المستقيمة المتقاطعة كرقعة الشطرنج، وهنالك تقوم الآثار الخالدة الشاهدة على

أعمدة باخوس

السرايا القديمة

تلك العصور، وفي مقدمتها الآثار الرومانية واليونانية كقوس النصر وأعمدة باخوس في حي الصليبة، إضافة إلى الآثار الإسلامية الكثيرة كالجوامع والحمامات على وجه الخصوص.

لقد شيّدت تلك المباني الأثرية من الحجارة الرملي المجلوبة من المقالع الشاطئية، وهي صلبة وقاسية، وتتحدى عوامل الطبيعة عبر الزمن، ولا تزال تظهر بلونها الوردي الجميل كما في جامع الشيخ ضاهر والجامع الجديد وجامع أرسلان باشا وغيرهم.

في حين استبدلت الحجارة الرملية وسائر مواد البناء القديمة بمواد بناء حديثة في الأحياء الأخرى وحلّ الإسمنت المسلح بدلاً من السقوف المقببة والقناطر والأيونات والمداخل الضيقة.

يعدّ حي الشيخ ضاهر مركز المدينة وقد أقيمت ساحة الشيخ ضاهر فوق مقبرة المدينة القديمة التي كانت تحمل اسم المقبرة الطويلة، وتشمخ وتطل عليها مدرسة الشهيد جول جمال التي بنيت عام ١٩٢٤ بينما بني الطابق الثاني عام ١٩٥٨ ، وقد حملت عند تأسيسها اسم مدرسة التجهيز، ثم أطلق عليها اسم الشهيد جول جمال ابن اللاذقية الشهير الذي فجّر المدمرة الفرنسية (جان دارك) إبان العدوان الثلاثي على مصر الشقيقة.

كذلك يتفرع عن الساحة الشهيرة هذه سوق العنابة، وهو جزء من المدينة القديمة لا يزال حتى اليوم يحمل عبق الماضي، ويشهد على عراقة اللاذقية وطول صحبتها مع الزمن.

ويتصل حي الشيخ ضاهر من جهة الجنوب بحي الكاملية حيث تظهر السرايا القديمة «مبنى قيادة الشرطة الآن» التي بنيت أوائل القرن العشرين، وجمعت سائر الدوائر الرسمية الحكومية حينذاك، ومنها النفوس والطابو والمالية وغيرها وقد اتخذ الطابق الأسفل منها كسجن يُزجّ فيه الأشقياء والعصاة والمارقون على القانون.

بينما يجاور حي المارتقلا من جهة الشمال وقد بني على حقل دفني واسع، وتظهر في حديقة الحيّ كنيسة القديسة مارتقلا التي تشرفت المدينة بمرورها بها، وقد بنيت تلك الكنيسة عام ٢٠٠٦ م بمساعي البطريركية الروم الأرثوذكس في اللاذقية.

إلى الشرق القريب من حي الشيخ ضاهر يمتد حي العوينة، وهو حيّ قديم تظهر فيه قنطرة العوينة والعديد من الخانات منها خان الحنطة، ويتداخل هذا الحيّ مع حيّ القلعة الذي يزدان بجامع المغربي وتلك القلعة التي تظهر إلى الجنوب منها تلّة الطابيات ثم تلّة الدبجيات، وقد خسر حيّ القلعة أثراً إسلامياً عظيماً يتمثل بضريح أم السلطان إبراهيم بن الأدهم وهو الملقب بسلطان الزاهدين، وإليه تنسب مدينة جبلة التي تلقب بجبلة الأدهمية مثلما تلقب بجبلة القسّام، ولقد أزيل ذلك القبر أسوة بالتكيّة المولوية التي كانت قائمة بجواره على مدى عدة قرون.

إلى الشمال من القلعة يمتد حي الفاروس، هذا الحيّ الذي تتوسطه تلّة صنعية لعلها تحتوي في باطنها أنقاض دير الفاروس الشهير الذي يرتبط ذكره بذكر الشاعر أبي الطيب المتنبي والفيلسوف أبي العلاء المعري، وقد وصف الرحالة والمؤرخون دير الفاروس بأنه أعظم الأديرة في مصر والشام.

يتلاصق حيّ الفاروس مع حيّ السجن الذي يُعرّف عند أبناء اللاذقية القدامى باسم بستان الشيخ

ساحة الشيخ ضاهر

قرعوش، وهذا الشيخ هو إسماعيل بن خلاد البعلبكي الذي قُتل ودفن فيه، وظل ضريحه مزاراً شهيراً طوال مئات السنين. ومن الجدير ذكره أن حيّ السجن كان منتزهاً طبيعياً جميلاً لأبناء المدينة أسوة بسفحي القلعة، وقد عرفت فيه بعض المغاور ولا سيما مغارة البابين ومغارة علي فضلاً عن كونه المجرى الأدنى للنُّهير الذي كان يجتاز بساتينه قبل أن يصب في البحر.

وإلى الشرق من حي السجن يمتد حي الرمل الشمالي وهو كما يوضح اسمه حيّ كانت تغطيه كثبان الرمل إضافة إلى الصخور الكلسية التي تظهر بقاياها في ساحة حلوم اليوم، وهي المسماة صخور الصلد.

على الطريق البحري نحو الشمال يظهر حيّ الأزهري الذي يحمل اسم علم الأزهري، وهي أسرة كريمة قدمت إلى اللاذقية سنة ١٠٠٠ للهجرة بعدما تخرج جدها الأعلى عبد المنعم الأزهري من الجامع الأزهر، وكانت أراضي الحيّ مملوكة لها، ذلك مثلما يحمل مشروع الزين اسم صاحب الأرض التي بني عليها.

يُعدّ الرمل الجنوبي سمّي حي الرمل الشمالي، وهو يقع في أقصى جنوب المدينة أغلبية سكانه من اللاجئين الفلسطينيين الذين قدموا إثر نكبة فلسطين، ثم إثر نكبة حزيران ١٩٦٧ ،ويعرّف حي العائدين بحارتيه حياً منظماً وسط حي الرمل الجنوبي أو الفلسطيني الكبير.

السجن ١٩٩٥

في تلك الجهات يظهر حي السكنتوري وحيّ بستان الصيداوي وحي بستان الحمامي وحيّ بستان السمكة وعين التمرا والغرّاف إضافة إلى الضاحية الجنوبية الأحدث عمراناً هنالك.

لقد حمل حي المنتزه سابقاً اسم حي الطراطبيز، وهي طيور شتوية مهاجرة من صنف السمّون والشحرور كانت تحط في البساتين شتاء، وتتغذى على دود الأرض فيها.

يتجاور هذا الحي مع حي بوقا هنالك حيث بنى الفرنسيون منشآت زراعية متطورة منذ العشرينيات من القرن العشرين، ومن أهمها المبنى الذي يستعمل كمقر للثانوية الزراعية الذي يعود بناؤه إلى عام ١٩٢٢ إضافة إلى مباني معهد الغابات العربي التابع لجامعة الدول العربية الذي كان يحمل سابقاً اسم المدرسة الحراجية للشرق الأدنى.

يظهر هنالك حي الحمام الذي بنى الإنكليز فيه حماماً صيف عام ١٩٤١ ليستخدمه جنودهم إبان الحرب العالمية الثانية، وقد حمل ذلك الحمام اسم حمام الإنكليز أو الحمام الطويل أو الحمام العالي إلى أن تهدّم مبنى الحمام لزوم العمران منذ بضع سنين، وقد كان جب البيبا هو الاسم القديم لحيّ الحمام.

في شمال المدينة والشمال من أتستراد الثورة يقع حي الدعتور بقسميه دعتور بسنادا ودعتور دمسرخو، وهو حيّ يضم المهاجرين من أرياف اللاذقية، لا سيما من منطقة الحفة ومنطقة جسر الشغور، وقد شكل هذا الحي قاعدة بشرية عمالية واسعة ساهمت في تشغيل الشركات والمؤسسات العامة التي بنيت

سوق العنابة

في اللاذقيـة ولا سيما مؤسسة الريجـي وشركة المرفأ وغيرهـا، وقد أقيمت مدينة الشبـاب ومدينة الادخار علـى تخومـه الشرقية والغربيـة الأمر الـذي حدّ من زيادة السكن العشوائي في حي الدعتور وحولها.

كان مـن أهـم القـرى والمـزارع التـي شملتهـا المخططات التنظيمية المتعاقبـة للمدينة قرية بساتين الريحـان وقرية القنينص ثم قريتا بسنادا ودمسرخو وقرية ابن أم هاني ثم قريتا سنجوان وسقوبين وصولاً إلى قريتي روضو واليغنصة في الشرق وقريتي العربية «اليهودية سابقاً» التي حملت اسمها الجديد منذ عهد الوحـدة والبصّة في الجنـوب هذه القريـة التي تلقب بجمـرة البحـر وتضم ضريـح الشيخ محمـد الناسخ البغدادي.

لقـد توسع العمران في المدينـة كثيراً، كذلك توسع المخطـط التنظيمي لها، ونشـأت أحياء حديثة جديدة منهـا حـي الزراعـة وحي الأوقـاف والبعـث ومشروع الريجي وحي جامعة تشرين والجمعيات السكنية التي بنيـت حـول جامعة تشريـن، وعلى جانبـي الأستراد

قوس النصر

كنيسة القديسة تقلا

الـذي يشـكل المدخل الشرقـي للمدينـة، وكذلك على جانبي أستراد الثورة.

نأمـل الحفـاظ على ما تبقـى من أوابـد أثرية في المدينـة بقسميهـا القديم والجديـد، وأن يحافظ على المدينـة القديمة في اللاذقية لتبقى الأنماط العمرانية المتعاقبـة فيهـا شاهداً علـى حضارتها وعلـى فنونها المعمارية الجميلة في تباينها والعريقة في أزمانها بدءاً من العهـد الروماني وصولاً إلى العهـد العثماني حتى يومنـا هذا. وهنا يحضرنا مـا ورد في الثقافة الشعبية مـن أن نهاية العالم وخرابه سيتـم حين يصل عمران اللاذقيـة إلى قريـة الشـير الواقعة علـى ضفة النهر الكبير الشمالي في مجراه الأدنى.

وما يرد على لسان ابن اللاذقية قديماً من غبطته مَنْ يسكن في المدينة: «يا نيال من صارله مربط عنزة في اللاذقية».

المراجع :

- محافظة اللاذقية ، جبرائيل سعادة.
- اطلالات ساحلية، حيدر نعيسة.
- اللاذقيـة حضـارة المتوسـط الأولى، سجيـع قرقماز.

المشافهات:

الجد عزيز يحيى /دعتور بسنادا.

الجد زهير غريب /اللاذقية.

الجد يحيى زكريا/ اللاذقية.

ملابس الأطفال الدمشقيين بين القرنين العشرين والحادي والعشرين من السركس إلى الفيلد

نبيـــل تللـــــو

الأطفال هم العالم الواسع الممتلئ بالروعة والمحبة والطهر والحيوية، هم البوابة التي تتغنّى بترنيماتها العذبة الإنسانية جمعاء. فالطفل كائنٌ بريءٌ عزيز على نفس كلِّ إنسان، وهو أغلى ما يملكه الوالدان، بل هو الاستثمار البشري الأكثر أهمية في المجتمعات الإنسانية. والحديث عن الطفولة هو حديثٌ عن القلب والعاطفة والعقل والمعرفة، وهو حديثٌ عن الحبِّ والفرح والبراءة والعذوبة.

والطفولة هي نَبْتُ الحياة، ومعبر البشرية من جيلٍ سابق إلى جيلٍ لاحق، ورمز الولادة الجديدة والحياة المتجدِّدة، واللبنة الأولى في بناء المجتمع، ومرحلة في حياة الإنسان قائمة بذاتها، لها عالمها الخاص القائم على إشباع حاجات الطفل العضوية والنفسية، وتحدِّد قصة الخلق الإنساني.

والأطفال هم سراج المستقبل، وأمل الجميع بغدٍ أفضل، الذين ترتسم على وجوههم الضاحكة البريئة صورة الحياة الأحسن والأزهى التي نرجوها

لهم جميعاً ونسعى إليها، ونهتم ـ نحن معشر الآباء ـ بتربيتهم وتنشئتهم النشأة الصالحة، لنخلق عالماً أفضل لهم، ليسعد المجتمع البشري بأسره.

وللطفل عالمه الخاص به، وبقدر ما يبذل المجتمع ما بوسعه لتلبية حاجات صغاره، كلما كانت الحصيلة أعلى كفاية وأكثر فعالية، فأطفال اليوم هم عدة المستقبل، وتوفير السعادة لهم واجبٌ إنساني على الجميع أن يسعى لتنفيذه وتحقيقه، ومن احتياجاتهم الأهم لباسهم وكساؤهم.

في هذه المقالة سنتعرَّف ملابس الأطفال الدمشقيين منذ مطلع القرن العشرين حتى الآن، والتطورات التي طرأت عليها، وما صاحبها من إلغاء وإضافات وتعديلات، راجياً أن يتذكَّر كرام القارئات والقراء ما نسوه، وأن يتعرفوا ما لا يعرفونه، آملاً أن أكون قد قدَّمت لهم المعلومة النافعة المفيدة.

قليلةٌ جداً كانت متاجر أو محلات أو دكاكين بيع ألبسة الأطفال والرضَّع الجاهزة والمتخصِّصة فعلاً في هذا المجال الصعب والخاص في النصف الأول من القرن العشرين، ثم انتشرت بكثرة بعد ذلك في أسواق دمشق كلّها لكثير أرباحها نتيجة تدليل الآباء لأطفالهم ومن ثَمَّ إقبالهم عليها، بل حتى تفضيلهم أطفالهم عنهم والمبالغة في هذا المجال، وفي المعارض التجارية المتخصصة بالملابس التي تقام على مدار العام لعرض أحدث الألبسة، يوجد قسمٌ مستقل لشركات تصنيع وتسويق ملابس الأطفال.

تبيع محلات ألبسة واحتياجات الأطفال والرضَّع حتى المراهقين الكثير من متنوِّع ومتعدِّد أشكال وألوان وطرز (موديلات) وأجناس وأصناف وقياسات وخامات ومواصفات معاطف وبنطلونات وسراويل وقمصان وبيجامات وجوارب وقشط وأحذية وربطات عنق الأطفال (بابيونات وكرافات) الأطفال الذكور، وكذلك طقومة وفيلدات (جمع فيلد وهي السترة دون أكمام) ومعاطف وفساتين وخراطات (تنورات) وسراويل ولحشات تلف حول الرقبة والأكتاف، والكومبينيزونات (لباس بحمالات حول الأكتاف والرقبة وصدر، لكنها بمطاط من الأسفل ودون أرجل)، وكذلك الألاشين (أحذية منزلية صوفية لتدفئة القدمين)، والصدَّارات (لباس قصير يلفُّ حول رقبة الطفل في أثناء تناوله الطعام كيلا يوسِّخ ثيابه بالطعام، ويُعرف أيضاً بـ: المريلة أو المريولة جمعها مرايل)، والزنانير والألبسة الداخلية والمعاطف الطويلة واللحشات والشالات للبنات، أيضاً الحرامات (البطانيات) الصوفية والشتوية، والقنداقات التي يُلَفُّ بها الأطفال حديثو الولادة، وديارات الأطفال المولودين حديثاً، والطقومة المصوَّفة الشتوية والقطنية والحريرية، والقبعات والشرائط، والبيبرونات (زجاجات ذات مصَّاصات لرضاعة الأطفال واللَّهايات (مصاصات بلاستيكية لإلهاء الأطفال)، وأمشاط وفراشي وربَّطات شعر، وفراشي ومعاجين أسنان الأطفال، وألعاب كثيرة، وأحذية قشرة لحديثي الولادة.

ومع كثرة موديلات وتعدُّد أشكال ألبسة الأطفال، ليس سهلاً أبداً تصميم وتفصيل وخياطة ألبسة جاهزة جميلة ومريحة وعملية للأطفال من كلِّ الأعمار للجنسين، أيّاً كانت نوعياتها وخاماتها وقياساتها وطرزها وألوانها ومفرداتها وأصنافها ومواصفاتها. يُشار إلى أنَّه لا يتوافر بدمشق محلات خياطة متخصِّصة بتفصيل ملابس للأطفال كما هو الحال عند الرجال الذين لهم خياطون متخصصون، مع تراجع أعدادهم، وكما هو الحال عند النساء اللواتي لهنّ خياطات منزليات، ولم أشاهد إطلاقاً امرأة تمارس الخياطة النسائية في محل.

ومِمَّا لا شكَّ فيه أنَّ بائع ملابس الأطفال يجب أن يكون محباً للأطفال، ومتفهِّماً لاحتياجاتهم، وأوضاع أهاليهم المادية، ويجب أن يتحلَّى باللطف، وطول البال، وحسن اللياقة، وحلو الكلام

والابتسام، وسعة الصدر، وواسع الخبرة، وكثير المعرفة، والضمير الحي، فزبائنه مضطرون لشراء ما يحتاج إليه طفلهم، حتى في كلِّ عيد، مع دفع الكثير، ولا أحد يفرح بالثياب الجديدة كما يفرح الأطفال، ولا سيما إذا تمَّ شراؤها بغرض ارتدائها في العيدين الصغير (الفطر) والكبير (الأضحى)، وأحد المشاهد اللافتة في هذين العيدين هو رؤية الأطفال يسيرون بشوارع دمشق في جماعات، برفقة أهلهم إذا كانوا صغاراً، أو وحدهم إذا كانوا كباراً، وكلهم دون استثناء بلباسٍ جديد زاهي الألوان ومتعدِّد الطرز.

غير أنَّ تنوُّع ملابس أطفال اليوم لم يكن بهذا الشكل سابقاً، وقد مر بمراحل عديدة:

ـ المرحلة الأولى: الرضاعة:

ما إن يتمُّ الكشف عن حَمْلِ الزوجة، ولا سيما إذا كان يجري للمرة الأولى، حتى تبدأ بتلقي التهاني والتبريكات من جميع المحيطين بها، ويبادر عمها والدها أو أحد الأقرباء إلى الإعلان بأنَّ «الديارة» عليه، وهي الملابس الداخلية والخارجية التي يُلبِّسونها للمولود حديثاً، ذكراً كان أم أنثى، وهي:

١ ــ قميص قماشي مصنوع من الشاش الأبيض الرقيق القطني الناعم.

٢ ـ زنَّار قماشي للسرُّة.

٣ ــ سروال قماشي فوق قطعة مستطيلة هي عبارة عن قماش سميك يسمَّى «الحفَّاض»، أو «المُضرَّبية»، ويربط بقطعة قماش رفيعة وطويلة تسمَّى «الدَّكة».

٤ ــ روب خارجي هو الواجهة، ومن ثَمَّ فإنَّه يكون من أجمل ما يكون من قماشٍ وألوانٍ وتطريزات.

٥ ـ «القنداقة»، وتُلفظ «الإنداءة»، ويُقال لها أيضاً «القِماط» أو «البقجة»، وهو قماش مربَّعٌ سميكٌ يُلفُّ على الطفل من الرقبة حتى القدمين بطريقة تشبه (المومياء)، ويتمُّ القمط بقمط اليدين والرجلين باستقامة، أي شدِّهما، وفي فصل الشتاء تستبدل القنداقة القماشية بحرامٍ صوفي، كما قد تستبدل صيفاً بحرام خفيف.

كان قمطُ الطفل بهذا الشكل أمراً شائعاً جداً حتى ستينيَّات وسبعينيات القرن الماضي، عندما بدأ هذا الأسلوب بالتغيير التدريجي نتيجة التأثر بعادات الغربيين الذين لا يقمطون أولادهم، ونتيجة التوجيه الصحي الذي شجَّع على ترك هذا الأسلوب لإبقاء اليدين والرجلين تنمو بشكلٍ طبيعي كما كانت تنمو عندما كان في رحم أمه، وحالياً أصبح الرضيع محرَّراً من كلِّ هذه القيود.

٦ ــ «التدويرة» حول الرقبة، وهي من المشمَّع أو البلاستيك لامتصاص ما يخرجه الوليد من فمه.

٧ ــ قطعة من القماش الرقيق (الشاش) تستخدم غطاءً للرأس، وهي ناعمةٌ وطريةٌ نظراً لحساسية ورقَّة جلد المولود.

٨ ــ ولا بُدَّ من تحضير «الحفَّاضات»، وهي خروق أو قطع من قماشٍ غالباً ما يكون مستعملاً، ويُعاد تفصيلها، وتُغسل بعد استعمالها ويُعاد استخدامها، ويُلف حولها مشمَّعة، أي قطعة نايلون.

٩ ــ ألشين: وهي لباسٌ قماشي أو صوفي لأقدام الطفل الوليد.

وغير ذلك من القطع، بحيث يصل عدد قطع الديارة حتى ١٥ قطعةً.

هذه الديارة ما زالت سائدة حتى الآن، ولكنَّها كانت تخاط في البيت من قبل الخياطة النسائية، ثم صارت تصنع في معامل الملابس، وصار بائعو ملابس الأطفال يضعون على واجهات محلاتهم لافتةً تقول: «لدينا ديارة ب . ب»، ولكنَّ بعض قطعها تغيَّرت، حيث استبدلت الإنداءة، أو القماط، بـ: «أفرول» يغطي كامل الجسم، وفوقه توضع التدويرة حول الرقبة. كما استبدلت الحفَّاضات القماشية (الخروق) بفوطٍ جاهزة قوامها القطن، وتُستخدم لمرةٍ واحدة ثم ترمى.

حتى سنوات قليلة مضت، كان لون الديارة هو الأبيض، تفاؤلاً بالنقاء والطهارة للمولود الجديد، ولم يكن هناك تفرقة بين الجنسين، وبعد أن صار بإمكان الطب تحديد جنس المولود قبل الولادة، صار اللون الزهري سائداً للمولودة الأنثى، تفاؤلاً بأن تكون أيامها زاهرة، في حين بقي اللون الأبيض هو السائد للمولود الذكر، وهذا لا يعني أنَّ بقية الألوان غير مستخدمة، ولكنَّ الأكثر شيوعاً هما هذان اللونان.

ـ المرحلة الثانية: الطفولة المبكّرة:

كان اللباس الخارجي للأولاد يسمَّى: «السركس»، جمعها: «السراكس»، ويُقال له أيضاً: «القفطان»، وهو ثوبٌ ملوَّن يشبه القنباز الرجالي، ولكنه يصل إلى ما تحت الركبة بقليل، وتصنع من أقمشة مختلفة، كما كانت هذه التسمية تُطلق أيضاً على الروب النسائي، وأصلها «الشركس»، لأنَّ الشركس كانوا يلبسونها، وحرَّفها اللسان الدمشقي إلى السركس.

وكان الأولاد يلبسون في أقدامهم «القبقاب»، جمعها «قباقيب»، وهو النِّعال المصنوع من الخشب، وقلة من كانوا ينتعلون الأحذية المصنوعة من الجلد، فقد كان القبقاب سيد الموقف، وله: «سير»، جمعها «سيور»، وهي قطعةٌ جلدية لتثبت القدم بالقبقاب، ويُدقُّ من طرفيه بالمسامير. وكانوا ينتعلون حذاءً بساقٍ طويلة وأشرطة يسمَّى «بوتين». وكانوا يضعون على رأس الطفل طاقية أو طربوشاً، ثم انتهى لبس الطربوش مع توقّف الكبار عن لبسه منذ الخمسينيات، وبقيت الطاقية بأشكالٍ مختلفة، وهي مصنوعة من الصوف شتاءً لتدفئة الطفل، ومن القماش لوقايته من الشمس صيفاً.

كما كان الأولاد يلبسون: «المنطفلة»، وهي حذاءٌ شبه مغلق من القماش أو الصوف أو الوبر أو اللبَّاد أو القطن أو الفرو الطبيعي أو الاصطناعي، يستخدم فقط ضمن البيت فوق البسط والسجاد، ولا يقتصر استعمالها على الصغار فقط، بل كان الجميع يلبسها وما زالوا.

وشيئاً فشيئاً، ومع اختلاف أنماط السكن والعمارة، وطرز البيوت العربية والعمارة الشعبية، ومن سكن عدة عائلات في هذه البيوت الأرضية، إلى السكن في الشقق الطابقية والأبنية العالية، وتخصُّص كلِّ عائلة في شقة طابقية مستقلة، وسط هذا التغيير بدأ كلُّ أفراد المنزل بما فيهم الأطفال استعمال «الشحاطات»، التي لا تُحدِث أيَّ أصوات وطرطقات، وبدأ القبقاب بالنزول من على عرشه الذي تبوَّأه لسنوات طويلة، حتى اختفى كليّاً أو كاد. ولا يوجد شحّاطة واحدة للبيت، فهناك شحاطة للحمام، وشحَّاطةٌ للمطبخ وأعمال البيت، وشحَّاطة رسمية لاستقبال الضيوف، وشحَّاطة لغرفة النوم تتناسب مع ثوب النوم، وشحَّاطات ذات ريش وشرائط وأزهار، وهي ما تُعرف باسم: «عرايسية»، وشحَّاطات مقدَّرة، أي كلاسيكية، للمتقدِّمات بالسن، وشحَّاطات طبية تفيد من يعانون من التهابات المفاصل وتسطُّح القدمين وتورُّمهما، وشحاطات للساحل والنزهات، وشحاطات حسب الفصول، وشحاطات مخملية عالية الحواف تغطي معظم القدم ولها فراء لاستعمالات الشتاء، وشحاطات بكعبٍ عالٍ أو دون كعب، وشحَّاطات كعبها عريض أو دقيق بلاستيكي أو خشبي أو إسفنجي، وشحاطات جلدية وأخرى بلاستيكية أو كوشوكية أو إسفنجية.

وبالتدريج بدأ الأولاد يتخلون عن السراكس والقباقيب، التي حلَّ مكانها البناطيل والقمصان والأحذية الجلدية.

وللختان، المعروف عند الدمشقيين بـ: «الطهور»، لباسٌ خاصٌّ، ويتكوَّن من قفطانٍ أبيض عريض أو سركس أبيض اللون مزركشاً لا يوجد تحته أيُّ لباسٍ داخلي، فإذا أراد المشي، أمسك الطفل به من الأمام حتى لا يمسَّ مكان الجرح فيؤلمه، ويُوضع فوق القفطان بُرنسٌ أبيضُ، وعلى الرأس طربوش مزيَّن باللؤلؤ والماس والورد. وعندما يحين موعد الطهور عندما

يبلـغ الطفل السنة السابعة من عمره، يبادر العم والد الزوج إلى الإعلان بأنَّ «الطهور والخروف عليه».

غير أنَّ مـا كان يرافق عملية الختـان من مظاهر احتفاليـة وملابـس خاصـة في وقتٍ مضى قـد اندثر تماماً الآن، ففي حين كانت العملية تجري حسب عادة الدمشقيـين بعد أن يبلغ الطفل عـدة سنوات، صارت تجـري الآن في مشفـى التوليد عقب الـولادة مباشرة وبأجهـزة الليـزر الحديثة، وإذا تأخَّـرت العملية، فلا يزيد ذلـك على الأسبوع الواحـد، وتجري في محلات متخصصة بهذا العمل، ويقـوم بهذه العملية مختصٌّ يُدعى: «المطهِّر».

ـ مرحلة الذهاب إلى الخوجة والكتَّاب:

كان الطفل يحمل في عنقه عند ذهابه إلى الخوجة والكتَّـاب (وهمـا المكانـان اللـذان كان يتعلَّـم فيهما الأطفـال قبل انتشـار المدارس) «التـوب»، وهو كيسٌ فيه المصحـف والسفينة (دفتر الكتابة)، و «الصبرة» (كتاب القراءة)، ويغلق الثوب بزرٍّ وعروة خاصة.

ـ مرحلة الذهاب إلى المدرسة:

وعندما بدأ ذهـاب الأولاد إلى المدارس الابتدائية الرسميـة في ثلاثينيـات القـرن العشريـن، أصبحوا يلبسون بنطـالاً قصيراً (نصف رجل) وجوارب تصل حتـى الركبتين، وسترة (جاكيت) مغلقة حول الرقبة، ولا يلبس تحتها قميص إفرنجي أو ربطة عنق، وعندما يبلغ الطفل عمر ١٢ عامـاً، أي انتهاء مرحلة الدراسة الابتدائيـة وبدء الإعدادية، يبدأ بلبس السترة العادية وتحتها قميص وبنطال طويل، وفوقهما صدرية سوداء تعلوهـا ياقـةٌ بيضاء عنـد العنـق، ثم اختلفـت ألوان الصدرية حسـب المدرسة، ولا بدَّ من لبس الطربوش. ولم يكـن لطلاب المدارس الإعداديـة لباسٌ موحَّد، بل يرتـدي كلٌّ منهم مـا يشاء، حتى فُرِضـت عليهم منذ الأربعينيات اللباس الموحَّد.

أمـا البنـات فكـنَّ يرتدين «الـروب» الـذي يصل إلى مـا تحـت الركبـة بقليـل، ويزيـد طوله بعـد سنِّ العاشرة، وفوق الـروب الصدرية الموحَّدة كالصبيان، أمـا رؤوسهـنَّ فمكشوفـة أو عليهـا حجـاب بحسـب سنِّهـنَّ وأسرهـنَّ، ومـا تـزال الصدريـات أو اللباس الموحَّـد معتمداً حتـى الآن في معظم المدارس ولا سيما الحكومية.

ومنـذ ستينيـات القرن العشرين ظهـرت «الفتوة» في المدارس الثانوية، وهـي نوعٌ من التدريب العسكري المبسَّط للطلبـة، ومن متطلَّباتها ارتـداء لباس موحَّد شبـه عسكـري للجنسـين في كلِّ المدارس الحكوميـة والخاصة، وكان باللون الخاكي (بني فاتح)، ثم أصبح لونـه أخضر في السبعينيات. وفي منتصف العقد الأول من القـرن الحادي والعشريـن أُلغيت الفتـوة، وظهر لباسٌ مدرسي جديد وفق الشكل الآتي:

ـ فطلاب المدارس الإعدادية أصبحوا يرتدون بدلة زرقـاء تحتها قميص سمـاوي للذكـور، وبدلة رمادية تحتها قميص زهري للإناث.

ـ وطلاب المرحلـة الثانوية يرتـدون أيضـاً لباساً موحـداً عبارة عـن بنطلـونٍ وسترة رماديـة، وتحتها قميص سماوي للذكور وزهري للإناث.

ويجـب أن يكون لون الإيشارب أبيضَ، ولبسه من قبل الطالبات اختياري.

غـير أنَّ ارتفاع ثمـن الملابس المدرسيـة الموحدة، إذ شهدت ارتفاعاً كبـيراً منذ العقد الثاني من القرن الحالي، ومن أسباب ذلك الحرب التي يشنُّها الأعداء علـى سوريـة منـذ عـام ٢٠١١، وهـذا ما دعـا وزارة التربيـة إلى عـدم التشـدُّد في إلـزام الطلبـة ارتداءَ اللباس المدرسي الموحَّد.

ـ أمـا خـارج المدرسـة فأصبـح الصغـار منـذ الخمسينيـات يرتـدون البنطـال القصـير أو الطويـل بحسـب الفصول والعمـر، بعضهـا كان يثبَّت بالجسم بشيَّـالات مطاطيـة زالت فيمـا بعد لانتشـار الأحزمة الجلدية التي تُلفُّ حول الخصر، وبعضها كان له صدرية تغطي كامـل صدر الطفل. وفوقه يُلبس قميص أو كنزة

أو جاكيت أو معطف مثل ما يلبس الرجال، واختفى السركس تماماً. وصارت البنات يرتدين البنطال أكثر من التنورة، وفوقه البلوز أو الكنزة بمختلف طرزها وألوانها وإكسسواراتها، وانتشر ارتداء الجينز عند الجنسين منذ سبعينيات القرن العشرين، حتى أصبح اللباس الأكثر شيوعاً الآن، وله أنواعٌ شهيرة ومصانع متخصصة بتصنيعه ومحلاتٌ لا تبيع سواه.

ختاماً أقول: إنَّ أصناف الملبوسات في كلِّ أمةٍ من أمم الأرض، تدلُّ على تراثها وثقافتها وعقيدتها ودرجة صلاتها بالشعوب الأخرى، وتأثرها بثقافاتها وعاداتها وتقاليدها، وإذا دلَّت في الأفراد على وضعهم المادي أحياناً، إلا فإنَّها في الوقت نفسه تدلُّ على ما هو أهم من ذلك، وهو مستوى ذوقهم الجمالي وحِسِّهم الفني، وهذا ما يتطابق مع التعبير الدارج بوصف الرجل بـ: «اللبَّيس» والمرأة بـ: «اللَّبِّيسة» إذا كان أو كانت تحسن اختيار لباسها من حيث موديلها ولونها ونقوشها، وينطبق هذا الأمر نفسه على ملابس الأطفال، التي عادةً ما يكون للأهل الدور الأهم في اختيارها حتى سنٍّ متقدِّمة، ويُدعى للطفل الذي يمشي مزهواً بنفسه ومتبختراً بملابسه الجميلة التي غالباً ما يكون هو قد اختار لونها بـ: «الله يحفظوا لآهله بيلبألوا (أي يليق له) كل شي»، وصدق الله العظيم القائل في القرآن الكريم: ﴿**وعلَّمناه صَنْعَة لبُوسٍ لكم لتُحْصِنَكُمْ من بأسكم فهل أنتم شاكرون**﴾ (سورة الأنبياء، الآية ٨٠).

ـ المراجع:

ـ دمشق في نصف قرن، ماجد اللحام، دار الفكر بدمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٠.

ـ دمشق أيام زمان ذكريات وصور من الدمشقة، عادل أبو شنب، الشام للدراسات والنشر، ١٩٩١.

ـ دكاكين وبياعين زمان، خلدون الشيشكلي، دار البشائر بدمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠٦.

ـ دمشق في ثمانين عاماً، الدكتور إبراهيم حقّي، دار الفكر بدمشق، الطبعة الأولى ٢٠١٨.

ديارة ب . ب . بيضاء اللون تفاؤلاً بمستقبلٍ أبيض للوليد.

ملابس أطفال حديثة.

طالبات في المرحلة الثانوية باللباس العسكري في أثناء حصة تدريبية أواخر القرن الماضي.

طلاب في المرحلة الثانوية في أثناء حصة تدريب الفتوة أواخر القرن الماضي.

طفل يرتدي الفيلد.

أشكال عديدة لملابس الأطفال.

محل لبيع ملابس الأطفال بدمشق.

زي شتوي لطفلة دمشقية.

طفل ملفوف في إنداءة بيضاء تفاؤلاً بمستقبلٍ أبيض له.

القبقاب للكبار والصغار اندثر أو كاد.

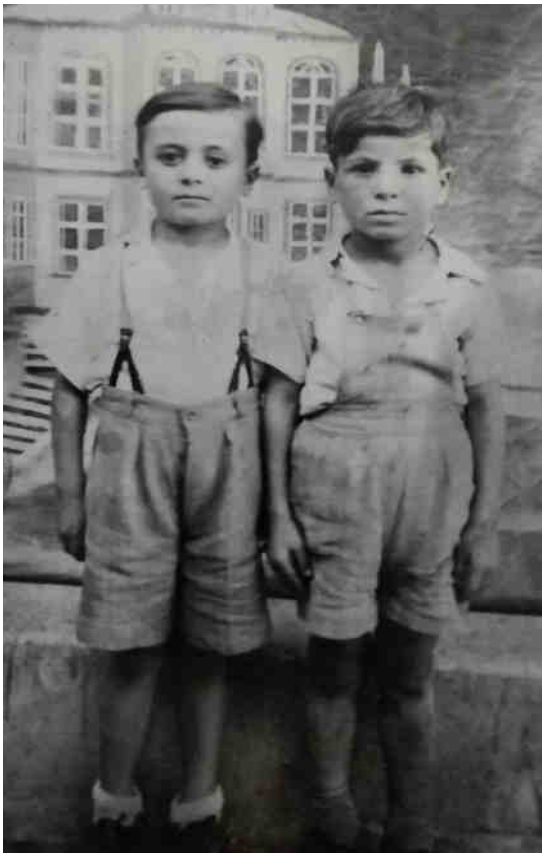

صـورة من خمسينيـات القرن العشرين، لاحـظ الصدرية (يمين) والحمَّالات (يسار).

صورة تعود لخمسينيات القرن العشرين: أطفال دمشقيون يرتدون ملابس جديدة في العيد.

احتفال بختان ثلاثة أطفال في بلدٍ عربي: العادات متشابهة.

نقائض في التدخين
تبادلها بالمحكيّة شعراء من جبل العرب

نصر أبو إسماعيل

إنّ التنفير من التدخين موضوع له أهمّيّة إيجابيّة كبيرة في المجتمع، وقد كان السبق في خلق حوار بين عدد من شعراء المحكيّة، حول هذا الموضوع للشاعر الشعبيّ سليمان بن عبدي الأطرش[1]؛ ففي كتابه « بنو معروف بين السيف والقلم » وفي معرض حديثه عن قصائد للشاعر سليمان عبدي الأطرش تتناول مضارّ التدخين ومنافعه المزعومة، كتب الأديب سعيد أبو الحسن: « إنّ سليمان الأطرش قد فتح في الشعر الجبليّ باباً جديداً، لعلّه جديد في الشعر العربيّ أيضاً، ألا هو باب « الشعر التبغيّ »؛ ذلك أنّ تغنّي الشاعر سليمان الأطرش بالسيكارة، خلق حواراً طريفاً، فريداً من نوعه بين عدد من شعراء الجبل من معاصريه »[2]. حدث ذلك سنة ١٩٤٠.

١ - سليمان عبدي الأطرش: قرية المجيمر – محافظة السويداء – ١٩٧٧ -١٨٨٨. شارك في محاربة العثمانيّين بالسيف والقلم ،إذ مارس العمل في الصحافة، وكتب عدة مقالات في جريدة المقتبس، (حذّر فيها من ممارسات الإدارة العثمانيّة، وتحدّث عن معاناة الشعب، وطالب بإصلاحات فعليّة، لخلخلة مرتكزات الجهل والتخلّف، ورفع الحيف عن سكّان البلاد. (انظر تاريخ حوران الاجتماعيّ- د. فندي أبو فخر ص (٢٣٣ – ٢٤٤). وقد شارك في معارك الثورة السوريّة الكبرى ضدّ المستعمر الفرنسي.

عُـيّن في ثلاثينيّـات القرن الماضي مديـراً لناحية القريّا. له ديوان شعر بالعامّيّة، عنوانه «أفديها بالشمس والقمر»، طبع عام ١٩٨٢، تناول في شعره قضايا قوميّة ووطنيّة واجتماعيّة، وذاتيّة.

٢- أفديها بالشمس والقمر -ديوان سليمان عبدي الأطرش - ص٢١٧ إلى - ٢٣٣ قصائد للوطن والثورة -ديوان هلال عزّ الدين ص١١١إلى ١٢٥.

قال سليمان [٣] ينهى عن التدخين وقد أقلع عنه:

أوّل عـذابك حَرقـة النـار ليدك ... وثاني عذابك خشّته مع وريدك
وثالث عذابك ينقصك ما يزيدك ... ورابع عذابك خمّ فمّك والضراس[٤]
وخـامس عذابـك يطلعـك باش قحّـاح
التتن يا معمي القلب ما يسلّيك ... يحرق عظامك والدخاخين تعميك
ويحـرّ كبْدك بالصدا والتواعيـك ... ويدعي بزلعومك مثل صيحة الديك
خمسين فرشـاي وثمانيـن كنّـاس ... ما نظّفوا صدرك من اوساخ وكلاح
عاده قبيحه تجعل الرجل مملوك ... صفرن سنونو مخبّث الفكّ وحنوك
كالمشحره مصبوغ فمّه والفكوك ... تعطّل احواله وحسّه يصير مدكوك
وبالليل تسمع لا شخيره والانفاس ... يغلي ولو يحكي كما صوت ضبّاح
اليا حكى بالناس بان الحكي جرش ... ولنّو غلاماً صار صوتو كما الهِرش[٥]
هذا الذي بي عادته يشبه الوحش ... لو كان يملك من جميع الرزق قرش
بيْه اشترى دخّان واصبح بالافلاس ... وخلّى عياله بجوعهم لَطْم ونواح
اليامشى خشّ التتن بالعلب خشّ ... وليا قعد فتّح عُلابه ونفّش
وان لفّها بالتفل بلبل ورشرش ... هذا الذي بي مَثّل الكيف بالغشّ
بيصعّد الزفرات وبْيقلق الناس ... بي نار مع دخّان وقْحاح وبْحاح
هـذا كما السنّور لحّاس مبـرد ... يلتذّ بـي دمّـو على مـا تعوّد
إن مـرّ بين شفاه دخّان أسـود ... عطّل احوالو وصار وجهو مجعّد
لو كان فضّه صار بي شكل النحاس ... قـذرٍ معطّل أجـرم الوجـه بقْراح
أنا انصحك يا صاحبي بطّل التبغ ... وارتاح من صفرة سنونك مع الصبغ
ووفّر على كفوفك من اللفّ والمرغ ... ووفّر على ثيابك من حروق مع دبغ
ووفّر على دمّك نيكوتين تنلدغ ... وخلّيك صاغ من النظيفين وملاح

ذكـر سليمـان بعضـاً من أضرار التدخين ، فهو يلوّث الدم والفم والأسنـان والأصابع، ويؤثّر في الكبد ، كما يلـوّث الجـوّ المحيط ، وقد يسقط من ناره على الثيـاب فيحرقها ، كما أنّه يستعبد المدخّن ، ويجعله يصرف نقوده على ما يعود عليه بالأذى ، وغير ذلك.

سليمان يعود إلى السيكارة:

لكنّ سليمان عاد إلى التدخين ، وقال محاولاً أن يسوّغ فعلته:

قلبـي تمنّـى آخـذ اليـوم باكيـت ... تركي (أهالي) والسكاير مذهّب [٦]
اليا فتحته ريحة العطر شمّيت ... يفرح دليلك قبلما تصير تشرب

---

٣ - خمّ فمك: جعل فمك منتناً.
٤- الكلاح والكلوح : التكشّر في عبوس.
٥ - الهرش: الطاعن في السنّ الذي لا يُرجى منه نفع. تطلق هذه الصفة للسخرية.
٦ - أهالي : نوع من أنواع التبغ التركيّ المعلّب.

طول السيكاره وولّعه بعود كبريت اليا ولّعت من قبل ما تذبّ تطرب [٧]
فاحت بريح فاخر عطّر البيت ولّا كما عود من النّد واطيب
لو ان حبيبك بعد الفراق لاقيت بوس السيكاره مثل بوسه وأطيب
ولوإن سيكاره بدارس القبر حطّيت أضحى القبر يشبه لقصر مرتّب
شربه لذيذ يشتّت الهمّ تشتيت لو بالمرض هذا دواك المجرّب
الما شرب دخّان عدّه كما الميت واللي شرب لوكان شايب رجع شبّ
قل للّذي بطّل يدخّن سيكاريت روّحت لذّاتك بهالعمر تضْرب

أراد سليمان أن يسوّغ عودته إلى التدخين باختلاقه حُججاً واهية ، وتهويلاً ، ومبالغات فيها شطط ، وبون شاسع عن الحقيقة ، إذ ادّعى أنّ لدخان السيكارة رائحةً عطرةً فاخرةً ، وأنّه يطرب النفس ، ويدخل أليها الفرح ، ويبعد عنها الهموم والأحزان ، كما أنّه يطرد المرض ، ويعيد العجوز إلى شبابه ، حتّى إنّ السيكارة لو دخلت قبراً لبثّت فيه الحياة ، وجعلته قصراً منيفاً ، ويختتم مداخلته هذه بتوبيخ تارك التدخين ، لتضييعه بذلك لذّاته.

صيّاح الحمّود الأطرش يستنكر: [٨]

استنكر صيّاح الأطرش احتفاء سليمان بالتدخين ، وأثارته عبارة «ضيّعت لذّاتك بهالعمر تضْرب»، فردّ عليه مفنّداً يقول:

يلّي تمنّى بآخر العمر باكيت تركي أهالي والسكاير مْذَهّبْ [٩]
يا صاحبي عذاب نفسك تمنّيت من عَفَن شُربه كود قلبك تعذّب
حتّى جليسك ما طرب يوم عبّيت لو كان دليله حين يلقاك يطرب
التتن يبكت ناصح الجسم تبكيت ينحل عظامك والمعاليق تخرب
يا هيه وان كنّك عَشُربه تشافيت لا شكّ عقلك من دماغك تمذهب
بآخر زمانك كود تغدي كما الميت تسعل ونار بي حواسك تلهّب
إن طعت شوري قول عنّهْ استغنيت اترك حباله ولا بحبّه تقَضّب
أنا انصحك حيث ان بشربه تعانيت شربه مُضرّ ولا تجرّب مجرّب

٧ – تذبّ: تمتصّ الدخان من السيكارة.

٨ – صيّاح الحمود الأطرش – قرية بكّا – محافظة السويداء) ١٨٩٨–١٩٧٧م) مجاهد مرموق ، شارك في الثورة العربيّة الكبرى للتحرّر من الاحتلال العثماني، وكان من المجاهدين القادة في الثورة السوريّة الكبرى ضدّ المحتلّ الفرنسيّ. عُيّن مديراً لناحية القريّا زمن الاحتلال مدّةً، وشغل منصب قائمّقام صلخد قبيل الاستقلال ، وشغل بعده منصب قائمّقام كلّ من الميادين فالقطيفة فالزبداني.

٩ – تركيّ: جنسيّة علبة التبغ. أهالي: اسم نوع التبغ على الغلبة.

في ردّ صيّـاح علـى سليمان يذكّره أنّ التدخين يدمّر الجسم ، وأنّ ادّعاءه أنّ التدخين يشفي من الأمراض يدلّ على أنّ عقله أصيب بلوثة ، ثمّ ينصحه بالمثابرة على الاستغناء عنه.

هلال عزّ الدين يشارك في ذمّ التدخين: [١٠]

ثـمّ شـارك الشاعر هـلال عزّ الدين في الـردّ على سليمان ، رغبة منـه في فتح الباب لنقائض تستفيد منها الأجيال ، فقال مخاطباً سليمان:

يا هيه يا من تشتهي شرب باكيت	دخّـان يغري النّفس لَنّه مْذَهّب
عطْره سُقُطْري سمّ بحْشاك غَلّيت	توجس آثاره بعْد ما تْصير تشرب
تطْرَب اليا ولّعْتها بْعود كبريت	وحْراق كبدك من لظى النار أقرب
عطْره وندّه وريحها بداخل البيت	لنّه كما حصن البعلبك يخرَّب
لْمَسَه ولَغسا وطعمها ان كان حسّيت	لـذّة عواقبها كما السّم وأعطب[١١]
لو ان سيكارة بي شفا الفمّ ذبّيت	فَحّتْ انفاسك ريحة القبر واكرب
شُربه وقُربه يدعيَ الحيّ كالميت	داء يفتّ الكبد كاَسمّ عقرب
أقبح طريقة للجسم كان سَوّيت	صدرك وعا دخّان منشان تطرب
صبغه على قلبك كما القيْر حطّيت	يطفح بلاها تْقول نارٍ تلَهّب
قحّه وبحّه وتاليَ الليل نحّيت	وخسران نفسك دون ما شيء تكسب
لو إن نفسك عن هوى التتن عفيّت	ما كان ظهرك تاليَ العمر أحدب
وأسير نفسك لَحْقر الناس دنّيت	شحّاذ لنّه ما كَلاَ الزّاد يكْلَب
قُل للذي ينْقاد للتتن ولّيت	أدبر زمانك ونت مملوك تضْرَب
لوان تقابل حاكم العدل ياريت	حكمه على من يشرب التتن ألغب[١٢]

يبيّن هلال لصديقه أنّ ما يراه في دخان السيكارة عطراً طيّباً ، ليس إلا سمّاً سُقطريّاً قاتلاً ، فيه خسارة للنفس بلا مقابل. ويردّ له لفظة التأنيب بما يشبهها ، وينبّهه إلى أنّ شارب دخان التبغ في شرع الحاكم العدل أحمق.

ويردّ سليمان على هلال مكابراً:

يا شيخ أبو متعب ظلَمْت وتعدّيت	وسبّيت هلّي ما لكم حقّ ينْسَبّ
لا يا عجب كيف إن تجرّأت وسْخيت	تْدوس الحبق وتخلّيَ المسْك ينكَبّ
قدّيش أحسن يا فتى لو داريت	ناس من الجّنسين يا خَي تشْرب
الجنس الأوّل صاحب الفضل والصّيت	هيل السّياسة وْللرّئاسات تُنْسَب
(كون[١٣]) الذكي لولا يدخّن سيكاريت	ما كان لَمْراض الجبل يوم طَبَب

١٠ – هـلال عـزّ الديـن –قرية الثعلة – السويـداء(١٨٩٣ –١٩٦٧) مجاهد من بيـت وطنيّ مرموق. أعدمت السلطـات العثمانيّة والده حسينـاً. شارك في الثورة العربيّة الكـبرى ضدّ الاحتلال العثماني، ثم في الثورة السوريّة الكبرى ضدّ الاستعمار الفرنسيّ. كما شارك رفاقَه نزوحهم إلى وادي السرحان ثمّ الأراضي الأردنيّة بعد انحسار مدّ الثورة.

له ديوان شعر بالعامّيّة عنوانه (قصائد للوطن والثورة)، طبع عام ١٩٩٩.

١١ – ولغسها– اللغس : الخبث،

١٢ – ألغب: أحمق.

١٣– كون طبيب فرنسي كان وقتها يمارس مهنته في الجبل.

والجنس الآخر يا فتى الجود آسيت ... عيون المها هلّي كما الندّ وأعذب
لْطاف المعاني لابسات اليواقيت ... واصباع فضّه للسواكير تقضب
لو يمّموها عالمباسم وراعيت ... هكّ الصْباع اللي السواكير تقْضَب
وكفوف تشحط للسنا عود كبريت ... نار تفوح ونار منّه تلهّب
ما عْرفْت خدّه من سنا النار ياليت ... أيّاً لميعه بين الاثنين أطيب
مَعْجَل كْبِرْت وهدّك الدهر ونْسيت ... هَكّ الليالي اللي قضيته ونْت شَبّ
ياما بذهبها وشربها فرحت وغويت ... وياما بعلبها اللامعه كنت تطرب
وياما سكرت وسرّك الليل وصْحيت ... وياما فرحت وكنت للكيف تسحب
ونْجوم في كبد السّما انْ كان لدّيت ... تلمع كما نور السيكارة وتشْهَب [١٤]
وياما تعبت وعن همومك تسلّيت ... وياما تعطّر منّك الجيب والعبّ
الكيف أصبح باليَمن وإنت أمسيت ... بْقطب الشّمالي مْلوّع الفكر والقلب
يا شيخ شُفْلك صومعة واترك البيت ... ولا عُدْت عا حيّ الغنادير تقرَب
وادعي لنا يا شيخ عالرّكْن والبيت ... ربّك كريم يْسامح العبد لَذْنَب

في ردّ سليمان على صديقه هلال ، يتّهمه بالاعتداء على محاسن التدخين حين يذمّه ، فهو يذمّ ما لا يُذمّ ، و يدوس الريحان ، ويسفح المسك، ولا يداري المدخّنين من كرام الرجال والنساء، إذ منهم رجال السياسة والقادة ، ومنهم الأطبّاء كالطبيب الذكيّ (كون) الذي يداوي مرضى الجبل ، ويتساءل :

لو لم يكن) كون (مدخّناً هل يستطيع تأدية هذه الخدمة الجليلة؟

١٤ -لدّيت: نظرت.

كما يتّهمه بإزعاج المدخّنات الجميلات ، ونسيان ماضيه السعيد مع الجنس اللطيف. ويردّ سبب ذلك إلى شيبه وعجزه اللذين يناسبهما اعتزاله في صومعة.

هلال عزالدين يردّ ثانية مفنّداً:

يا بو حَسَن ما قَط عُمْري تعدّيت ... وسَبّيت مَنْ هو ما به شيء ينْسَب
ما هو عَجَب لو أنّني اليوم جَرّيت ... سيف على جيش الظُلَمْ حقّ ينْصَب
أمّا العَجَب تَشبيهكم مسكْ بالبيت ... للتّبغ حين تْشمّهُ النّاس ينْكب
وَضْحيت أنا المغضوب ونْكان داريت ... شيء على الجّنسين نار تلَهّب
إنْ كنت مغرم بَلْطف الجّنس وغْويت ... ما لاق لي تَلْبيس ظَبْية جلدْ ضَبْ
(وكُون) الحكيم اللي يدخّن سيكاريت ... يْخالف نظام الطّب وبْذاك أغْرَب
لُقْمان مع ما بينهم من تفاويت ... ما قال في علْمه عن التّبغ يُشْرَب
ستّ النّسا بلقيس وإنْ كان عفّيت ... أمّ المسيح وعايشة أم يَعْرُب
ما شَرّعوا للجّنس وإن كان راعيت ... بكْتابهن إنّ الأنامل تخَضّب
بي صَبْغة تشْداك دمّ العفاريت[١٥] ... وكبده على نار المجامر يعذّب
كم غيدةٍ قالت برأيك تحَدّيت ... غيد طعم سَلسالهن شهد وَعْذب
الكيف ما هو شُرب دخّان تعْنيْت[١٦] ... ونفسي على مْراد الجسم دوم تغْلب
إن كنت للجنسين بالقلب ودّيت ... إنصح لهن أن صالح الجسم يخْرَب
ما إنت يلّي أوّل النّاس شنّيت ... غارة على التنباك بي حدّ أحدب؟
ما لي أراك اليوم عن ذاك شتّيت ... وبْلُجّة غَرام التّتن إنت تنْدَب
مع أوليا الشّيطان حقّاً تباريت ... والنّصر كان بْجانبك وإنت تطْرَب

١٥ – تشداك: تشبه.

١٦ – تعنيت: من العنت، وهو هنا التعصّب والعناد والمكابرة.

وما راغ من قولك عن البال ونْسيت ... بيت من الأبيات شعْرَك وإنت شَب
وما عدْت تذكر ما ذكرته لنا مَيت[١٧] ... وتنْصَحْ لنا بي صومعة نْروح ننْكَبّ
بي صفحة التّاريخ مكْتوب ضَلّيت ... وما ناصَرَكْ مَنْ كان للحقّ أقْرَب
وندعي لكم في داخل الرّكن والبيت ... إنّ الإله يْعيد روحك إلى الطّبّ
وقلبك يوالي مَنْ له الحيّ والميت ... خالق جميع الناس عالكون هو رَبّ

هلال في أبياته السابقة:

- يرفض اتّهام سليمان له بالاعتداء ، فهو يحاول ردّ الظلم ليس غير.
- يستهجن تطرّف سليمان في ادّعائه قداسة التدخين ، وتشبيهه رائحة دخان السيكارة برائحة المسك والورود والرياحين.
- يعتبر نسبته التدخين للنساء كاعتبار الظبية كالضبّ، ويقول ما معناه: شتّان بين أنامل مخضّبة الأظافر بصباغ جميل ، وأخرى مشوّهة بآثار الدخان.
- يذكّره أنّه أوّل من شنّ الغارة على التدخين، ويسأل ما الذي غيّره.
- يبيّن له أنّه نجح في مزايدته على الشياطين وتحالفه مع الباطل.
- يدعو له بالشفاء من ضلاله هذا.

سلامة كرباج[١٨] يتدخّل مناصراً سليمان:

كان سلامة قد ترك التدخين ، وقلب له ظهر المجنّ ، لكنّ ودّاً قديماً بينهما ، سكن دمه لسنين طويلة ، ألحّ عليه بعد وقت قصير أن يعود إلى التدخين فعاد ، ومهر عودته بهذه المنظومة التي خاطب بها الشاعر هلال عزّ الدين . يقول سلامة:

البارْحه ما طَبَق الحُجْر بنْعاسْ[١٩] ... حيثَهْ ذَهين ويودع القَلبْ مادَلّ
ياهلال ثاري فكْركُمْ خَرْبَط الراس ... قَدْرَك رَفيع والعَنا بيكْ ما زَلّ
لا صار ماتطْرَب إلى التّتُن تحْتاس[٢٠] ... ولا ينْجلي عَنّك ترى هَمّ مَع غلّ
أفْسَدْتْ هَلّي خالَط بكلّ متراس ... عشرين عام يابو متْعب ولا كَلّ
يا صاحبي أوْدَعْتْ بالقَلب هُوجاس ... من قولتك إنّ التُتُن آخرو يْعلّ
تطْرَب إذا شْربْت التتُن حدّ محْمَاس ... بْغَرْنوقة بعد الغَلي ماءْها زَلّ[٢١]
ثاري التُتُن ياشيخ تطرَب له الناس ... عندك سيكارة مْبَرّمي وْزاد في حَلّ
إنْ طعْتني يا هلال لو شْربت لا بَاس ... لو تمْضَغ الدخّان عنْك الغَثا فَلّ
ولاتعْتني يا صاحبي بْأبيض الكاس ... بي ساعتَه يدْعي العقل صار مخْتَلّ
دَخّن لْيَا صُرْت بْغَثا وْبيْك وسواس ... يفرّج عنْك بيساعة ما بها ذُلّ

١٧ – ميت: متى، وهنا في وقت ما.

١٨– سلامة قاسم كرباج من قرية أمّ الزيتون شماليّ شهبا (١٩٥٩-١٨٩٢) كان يتّصف بالذكاء الفطريّ وسرعة البديهة ، لقّبه معاصروه بالنقّاش ، والنقّاش عندهم هو الفَكِه صاحب النكتة . له عدّة قصائد لا زالت مخطوطة.

١٩ – الحجر: قصد محجر العين.

٢٠ – تحتاس: تحار.

٢١ – الغرنوقة: قصد الدلّة التي تطبخ بها القهوة. الإبريق.

لْياصرْت ترسم بالقلم فوق قرطاس دخّن سيكارة تْشوف للقاف ينْهَلّ
ولا هُو من اللي يودعَك فوق مقباس[٢٢] ولْيا شْربْتَهْ للمَلا ما تْذَمّل
يا هلال لاقيت التُتن هُوْ عَسّاس لْياصُرْتوَحدكهُوْترى الكلّ بالكلّ
واللي رَميْته ما يطابق بالامْراس حذْراك عنْه صْويحبي ما بْبَطلّ
وماني من اللي يشْربوالتُتُن بغلاس ولاني منااللي عالدخاخين ينْصَلّ[٢٣]

أهمّ الفكر في ردّ سلامة على هلال :

- أظهر قلقه حيال أفكار هلال المعادية للتدخين.
- ذكر له محاسن التدخين بحسب رأيه ، وحثّه على العودة إليه ، والإقلاع عن شرب الخمرة التي تضيّع العقل.

هلال يردّ على سلامة ويرفض اقتراحه :

أبدا بذكْر الهاديَ النّمل بحْواس عَالوَكْر في غَلْس الدّياجير ينْدَلّ [٢٤]
يامَلّ قَلْب من غَشا البال محْتاس ساعه على صافي المَلَذّات ما ظَلّ [٢٥]
توحي خْفُوقَه ضوح طوب بمتْراس دابَه على ضَرْب الدّيناميت ما كَلّ [٢٦]
يشداك جَدْع بي قَفا الجَدَر مَنْداس مبْتور من رثّ المْعاليق منْشَلّ
ما لوم دهر لو بغى العَبَث بالناس يا حيف قلب الشاعر يْكون مخْتَلّ
الخَلْق ماتُوثَق على الدوم بمْراس لا عاش رَجْل نافد الصبر معْتَل
لا يا سلامة تْحَرّم الخمر والكاس وتْزيد بالأمْرين تستَعذب الغُلّ
تبغى تباهي بْرفقة التتن نوّاس وعن التّباهي بْرفْقتَه دوم تنْجَلّ
بئس الرفيق بْنَشوة الصقر دعّاس جثمان خلّ سَلّس النّفس منْذَلّ
شأْنَه على كَبْد الرّفق حَلَك حنْداس[٢٧] تخْوي بِه الأحْشاء والخَلق تنْعَلّ
بالناس هُوْ وسواس وبالفعل خَنّاس لياجاش بَكْ جاشه عن الجاديه تْضلّ
خَطْو الرجل ثوب الغطاريف لَبّاس حَبْلَه على رَدْع النفس بات منْفَلّ
لْيا صار هامَه فاقد الرُشد لا باس لَو صار لأعدا النفس صاحب خَلّ[٢٨]
وأرخى عنانه بالمحاديرِ نَسّاس عَيّا على كَبْح الجمح هَلهَل وْضلّ
وْلا عادْ ماني للمخاليق سَوّاس ربّك حسيب الناس والكلّ بالكلّ

- تحدّث الشاعر في ردّه عن همومه ، ومتاعبه الكثيرة.
- اتّهم منتقده المدافع عن التدخين -على سوئه- باختلال عقله، وعدم قدرته على كبح جماح نفسه إزاء رغبتها في التدخين.

٢٢- مقباس : شعلة من نار.
٢٣ - بغلاس: في الظلام ، يقصد خلسة.
٢٤ - غلس الدياجير : ظلمة الليل.
٢٥- يا لحرقة هذا القلب. كقول المتنبّي:(واحرّ قلباه).
٢٦ - صوت دقّات قلبه كصوت قذيفة المدفع عند إطلاقها.
٢٧- حلك الحنداس: ظلمة الليل.
٢٨ - ليا صار هامة : لو غدا ميتا.

- استهجن مساواة صاحبه تدخين التبغ بشرب الخمرة.

تنتهي المرافعات الطريفة، وقد تجلّى فيها الإصغاء إلى الرأي الآخر، وبعث النشاط والحركة الذهنيّين، ومعهما السعي نحو الابتكار والاحتجاج، وإن كانا في مرافعة خاسرة، إلى جانب الحجج الصحيحة التي أوردها معارضو التدخين. وهي أولى المناظرات الواسعة الحامية في شعر المحكيّة الجبليّ، وقد حدثت عام أربعين من القرن الماضي، وهو وقت مبكّر نسبيّاً.

قصيدة لشاعر لم يشترك في المناظرة. أقلع عن التدخين فذمّه : ياريت ما كان التبغ

الشاعر أحمد يوسف كمال - ملح

من خارج المعمعة تحدّث الشاعر أحمد كمال عن معاناته في صحبة التدخين شعراً، ثمّ سمّى بدائل أخرى للمتعة. قال:

عشره وستّ أعوام للتبغ حبّيت ... وَمْليت راسي منْهْ يومن بغيته
خذيت بعنان النفس عنْهْ عفّيت ... يومن بغى قلبي فراقه نسيته
لو بالمشفّي والتماني تمنّيت ... ومشيّد نابي العناديب بيتَه
الكيف صهوات الرَمك تبعد الصيت ... من فوق حمره كلّ ديره نصيته
والكيف مشروب القهاوي ان شفّيت ... بدْلال مع طيب المبهّر سويته
والكيف مع ربع تغضّ التلافيت ... واحفظ من العالم فوايد وصيْته[٢٩]
والكيف رزقٍ بسّ فيهم تكافيت ... تذكر اوصافه قبل ربّي يميته
تمام كيفك غادةٍ تنعش الميت ... ياغير من خاص النسب ما رضيته
التبغ منّه داخل حشاي ملّيت ... يومن تعانيت الخساير شريته
لا جاب لي كيفٍ ولا به تغذّيت ... ياريت ماكان التبغ وألف ريته
عنّه وعن خيبة اشواره تغاضيت ... لو هو رفيقاً صالحاً ما سليته
كلْ من تكلّم صادقا به تعانيت ... وعدٍ صحيح من وعدته وفيته
أنصي وأعمد للرجال المباخيت ... والخيّر اللي يكرمك لو لفيته
قصيرك اللي ينطحك عندما جيت ... احرص على محسوس بيتك وبيته[٣٠]
لا بدّ ما نحدر عميق التوابيت ... وكل واحدٍ يلقى على طيب نِيْتَه

تحدّث الشاعر في قصيدته عن تاريخه مع التدخين وتركه ، وندمه على تعاطيه ، ثمّ ذكر أموراً أخرى أفضل يمكن أن تحقّق للإنسان المتعة وراحة النفس ، منها ركوب الخيل ، وشرب القهوة المرّة ، ومجالسة الصحاب من ذوي العلم ، والانشغال بتحصيل الرزق الحلال ، وختم ذلك ذاكراً أنّ تمام السعادة هو في العيش مع امرأة صالحة تردّ الروح لزوجها .

٢٩ - تغضّ البصر.

٣٠ - قصيرك: جارك. ينطحك : يلاقيك و يُهرع لاستقبالك.

قراءة في كتاب (أرجوزة المرأة في بلاد الشام) «المُهَاهَاة»

وجيـــه حســـن

إنه عنـوان كتاب قيّـم، لمؤلّفه الباحـث المعروف «محمـود مفلـح البكـر»؛ هـو عبـارة عـنْ دراسـة مُستفيضـة، تتقصّى التّسـميات العديدة والمتنوّعة لـ «المُهَاهَاة»، التي هي بتعريف وجيزٍ مُبْتَسَر: (أرْجوزة شـعبيّة موْزُونـة مُقفّـاة «نسـبة إلى بحـر الرّجـز»، الـذي يعدُّه العروضـيّون حمار الشّـعراء)، ترْتجلُها شـرائحُ من النسـاء - بشكل حصري - بمناسـبات الأفْراح والأتْـراح، والمواقف الحماسـيّة بعامّـة مـن دون مصـاحبة الموسـيقا. لكنّ المؤلّـف «البكر»، رأى من خلال قراءاتـه ومطالعاتـه، ومن خلال أخذ المعلومات المُستَقاة منْ أفواه النّساء مباشرة، أنّ هناك تشوّشاً واضطراباً قد لَحقَا مفهوم هذا الفنّ الشـعبي الجميل المُونِـق، وتسـميته بـآنٍ معـاً! حينئذٍ آلى الباحث على نفسه أنْ يتفرّغ لهذا الأمر، عاملاً على ضـبط إيقاع الجهد والعمل، ومن جـرّاء ذلك توافرت له مـادّة غنيّة دَسِـمة، مُفْعَمَـة بالنصـوص والمعـارف والأفكار والمعلومات، إضـافة إلى رجوعه إلى عددٍ جـمٍّ من المَراجِـع القيّمة، التي رَبَـتْ علـى ثلاثـين كتابـاً، فقـد اعتمد عليهـا للدراسـة المقارنـة، إذْ ألفى فيها المفهومـات والمصـطلحات والتّسـميات الدّارِجة لتعبير «المُهَاهَاة»، مُحدّداً دلالة كلّ منها، ومدى صـلتها بالمُسمّيات الشعبيّة الأصيلة، التـي تبنّتْها النّسـاء في غالبية المناطق، التي انتشـر فيها هذا الفنّ الشّعبي الأصيل..

ولا بـدّ مـن التّنويه في هذا السّـياق، إلى أنّ الغاية التـي أرادهـا الباحـث مـن تأليـف كتابه هـذا: (هي

الوصـول لمفهومات محـدّدة، وإلى تسـمية دقيقة لفنّ «المُهَاهَاة»، من باب طمأنـة الباحث والقارىء والمُطّلع بوقتٍ معاً)!

ففـي التوطئـة، يبـدأ الباحـث دراسـته بتعريـف مصـطلح: «المُهَاهَـاة»، إذ يذهـب إلى أنّ هـذا الفنّ، أو هـذا اللـون مـن الأَرَاجِيـز الشـعبيّة، قـد اسـتمدّ تسـميته من اللفظة الافتتاحيّة لأبياتـه، وهي: «إِيْهَا»، ومثيلاتهـا، إذ إنّ تكـرار المـرأة لـ «هَاهَـات» بمطلع كلّ بيت، قد أوحَى باسـتلهام التّسـمية من الصّـوت.. وينبغي القول هنا بشـفافية مطلقـة: إنّ هذه الأَرَاجِيز تعود في جذورها التاريخية وفي أصـولها – كما يشـير عدد من المصـادر – إلى ما قالَتْه نسـاء «بني ربيعة»، في يـوم «ذي قار»، وما هتفَـتْ به «قريش» بيوم «أُحُد»، الغاية منْ ذلك كلّه: إثارة الحماسة في قلوب المقاتلين، وبثّ القوّة في نفوسهم!

ولا تتبايـنُ أراجيزُ النّسـاء في أيامنا الرّاهنة عنْ تلك الأَرَاجيز في شـيء، ما عدا اللهجة، فالفنّ نفسـه لا يزال مُتجدّداً، مُفْعَماً بالحيويّة والاستمرار! أمّا عن الكيفيّة، التي تُقال بها «المُهَاهَاة»، فإنّ النّسـاء تقولها وهُنَّ واقفـات، في الأعمّ الأغلب، وأثناء مسـيرهنّ في حفـلِ زفـاف عروسـين، وكـذا في جنـازات الرّاحلين عنْ هذه الفانية، وربّما تُهاهي بعض النّسـاء المُسـنّات أحياناً وهنّ قاعدات في أثناء وضع الحنّاء للعروس، أو في وقت الحمّام، أو «الكوشَـة».. وفي هذا يقول الباحث «البكـر»: «تُقـالُ المُهَاهَـاة بصـوتٍ مرتفع، وأسـلوبٍ حماسـيٍّ، مـع تَرْك فاصـل زمني قصـير بـين البيت السّابق، والبيت اللاحق»، (ص٨)!

وعـادة مـا تبـدأ «المُهَاهَـاة» باللفظة الحماسـيّة التّنبيهيّة للسّامعات، أو السّامعين، وهي: «إِيْهَا»، أو ما يُشاكلُها منْ تنويعات بانوراميّة لفظيّة، وذلك باختلاف المناطق والأرياف واللهجات، لكنّها بالمحصّـلة، تؤدّي الأهدافَ والأغراضَ نفسـها: «وِيْهَـا»، «أَهَا»، «هَاهَا»، إلخ، وهاكُم بعض الأمثلة:

«رِيتو مبارَك كلّ شـي عملنَـا لَك كُلّو من جَنَى بَيَّك وما استعرْنا لَك»،

«أهلاً وسـهلاً فيكُم يا ضيُوف عزَاز عَ قلوبنا أغْلى منَ الألمَاز»

«يـا رِيت مَنْ دَعَـت عَ البَدْلِه وراعِيهـا أوِيه.. تِبْلى بكاسِ العمَى ما تلاقي حَدَا يداوِيهَا»..

السؤال هنا مُفادُه:

- ما الفرق بين «المُهَاهَاة»، و«الأغنية» إذنْ؟

في الجواب:

– الأغنيّـة يردّدها الإنسـان في أيّ وقت يجد لديه الرّغبة في ذلـك، وإنْ كان وحدَه، أمَّـا «المُهَاهَاة»، فلا تُقـال إلّا بهـدف مُعـيَّن، وبغرضِ توجيه رسـالة إلى إنسـانٍ ما، أو جماعةٍ من الجماعات، وتُقال بحضـور جَمْهرَة من الناس، وهي تشـيع وتنتشـر في مدن بلاد الشـام وقراهـا، أمّا في «بادية الشـام» أي عند البدو، فلا حضور لها!

سؤالٌ مُوَالٍ:

– ما التّسميات الشّائعة لـ «المُهَاهَاة»؟

– تـردُ لفظـة «زَلْغُوطَـة» لـدى عامّـة النـاس، ويقصـدون بهـا «المُهَاهَـاة»، في حين يضـيف الكتّاب أو سـواهم ألفاظاً أخرى مثـل: (زَغْـرُوْدَة، أُهزُوْجَة، هَنْهُونَة، هَلْهُولَة) إلخ..

ويبحـث المؤلّـف «البكـر»، فيمـا يقـارب الثلاثين صفحة أصـلَ هذه التّسميات كما ورد بأقلام عددٍ من الكُتّـاب العرب، ثمّ يعقد مقارنة بينها بأسـلوب نقديّ تحليلـيٍ واضـح البصـمات، مُتحرّياً وجـه الحقيقة، صريحاً في عرض النّتيجة، يقول بهذا الصّدد: (أتفقُ مع غيري من الدّارسـين والباحثـين، أنّ الزّغاريد هي مجرّد أصوات مُزَغْرَدَة منْ أفواه النّسـاء، لا كلام فيها ولا ألفـاظ، وأختلف مع أحد الكتّاب في إطلاق تسـمية «هنْهُونَة» على النصـوص الرَّجزيّـة، أي «الواردة على بحر الرَّجَز الموزون»، التي ذكرها، فهي من المُهَاهَاة»، على وجه القطع والبتّ)، « ص ٦٦»!

ولكنْ ماذا عن «بِنْية المُهَاهَاة»؟

في الإجابة عن هذا السّؤال، فإنّ عدداً لا يُستهَان به من النّساء، قد امتلك موهبة إبداع الأغاني الشعبيّة، و «المُهَاهَاة»، ولا مندوحة هنا من القول: إنّ كلّ امرأة تُهاهي بأسلوبها، ولها بصمتها الخاصّة في افتتاح المُهَاهاة واختتامها..

وأغلب نصوص «المُهَاهَاة» مكوّنٌ منْ أربعة أبيات شعر مشطورة..

وإلى القرّاء والقارئات الأعزّاء، نوردُ المثال التالي في مدح النّساء السَّمْرَاوَات:

«واحْنا السُّمْر واحْنا جِرَار المَال»

«واحْنا الزّياتين بتْتركن على الأحْمَال»

«يا صاحبَ الزّيت لاستغْني ورُدّ المال المال»

« يا صاحب اللبن وَرْوَر ما بقِي لهُ حال»..

(ص ٨٣) ...

ومن المعروف والشّائع، أنّ أطوال الأبيات في نصوص «المُهَاهَاة»، تتباين تبايُناً شاسعاً في عدد الألفاظ بكلّ بيت أو كلّ شطر، وبعدد «التفعيلات»، فبعضُها طويل كما في المثال السابق، وبعضُها قصير مثل:

«آوِيْهَا بيتْنَا دافِي»

«آوِيْهَا وَعِيْشْنَا وَافِي»

«آوِيْهَا كُلُوا يا جَمَاعَة»

«آوِيْها صَحَّتين وَعَوَافِي».. (ص ٨٥)..

وهناك نصوص ضُبطت أبياتها المشطورة بقافية موحّدة، ونصوص قافيتها واحدة بالشّطرين الثالث والرّابع، أمّا الأوّل والثالث فَحُرَّان!

وهكذا يستعرض الباحث «البكر» بعبارات دقيقة تفاصيل عدّة بهذا الجانب، موضّحاً ذلك بالأمثلة، ومُتريّثاً عند نقاط التّشابه الكثيرة، بين «الأُرْجُوزَة» و«المُهَاهَاة»، منها ما ذُكِر أعلاه، يُضاف إليها شدّةُ التّأثير في المتلقّي، وسهولة العبارة، وسرعة الإيقاع، لكنّ الوزن الشّعري للأُرْجُوزة هو على بحر «الرَّجَز»، أمَّا «المُهَاهَاة»، فتُوزَن على البحر «السّريع»، ومجزوء البحر «البسيط»!!

وفي الصفحات العشرين الأخيرة من الكتاب، يعود الباحث ليؤكّد أنّ أصول «المُهَاهَاة»، قد وُلِدَت في ساحات الوَغَى والحرب، قبل ألف ونيّف من السّنين، لذلك حافظتْ على روحها الجيّاشَة، حتّى وهي تتناول موضوعات متنوّعة: غزليّة، ووصفيّة، واجتماعيّة، ووطنيّة، وترفيهيّة، إلخ.. موضّحاً ذلك بالأمثلة، مُنْتقلاً من موضوع وصف مَفاتِن العروس، إلى مدح العريس، إلى الأدْعية، سواء أكانت أدْعية الخير، أو أدْعية الشرّ، والنّدب، والتّهنئة، إلى غير ذلك من الموضوعات العديدة المُتكَثّرة!

قصارَى القول:

الكتاب بحقّ وتجرّد، يحفلُ بمادّة غنيّة بنصوص «المُهَاهَاة»: «الأَرَاجِيز»، يمكن الاعتماد عليها على أنّها من الوثائق المهمّة، التي تفيد في رَصْد جانب من التاريخ الشفوي لسكّان بلاد الشام، وبمادّة بحثيّة علميّة رصِينَة، تربط الماضي بالحاضر، وتعقد مقارنات نقدية، تُثري البحث وتُغنيه، وتضيء في الوقت عينه جانباً مُهمّاً من جوانب الفنّ والأدب الشعبي في بلاد الشام المُتراحِبة الأطراف، والغنيّة بتراثها الشّعبي، وبموروثها الثقافي بعيد الأغوار والأمْداء..

ملاحظة وتنويه:

الهوامش والشّواهد مُسْتوْحَاة ومأخوذة من الكتاب المشار إليه، المَوسُوم بـ «**أرجوزة المرأة في بلاد الشام**»، لمؤلّفه الباحث المعروف: (**محمود مفلح البكر**)، نشرته «الهيئة العامة السورية للكتاب»، التابعة لوزارة الثقافة.

حكايات من روسيا البيضاء
مونولوج البئر المغلقة

د. ثائر زين الدين

حين كتبت الروائيّة الشهيرة سفيتلانا ألكسييفيتش من بيلّاروسيا (روسيا البيضاء) روايتها الباهرة «صلاة تشرنوبل»، ونالت عليها جائزة نوبل للآداب عام ٢٠١٥، اتبعت أسلوباً بسيطاً جدّاً- كما يبدو للوهلة الأولى- لقد طافت في المنطقة التي تضرَّرت من جراء انفجار مفاعل تشيرنوبل، وجمعت أحاديث الناس من مختلف الطبقات والشرائح والقوميات والأعمار، وجعلت منها فصولاً في روايتها، وقد استوقفتني مليّاً أمورٌ

كثيرة مؤلمة وجارحة، حين كنت أترجم الكتاب إلى العربيّة، بعضها يتعلّقُ باجتثاث الناس من قراهم ومدنهم ونقلهم إلى مناطق أخرى خشية إصابتهم بالتلوّث الإشعاعي، لقد كان الأمر طمساً بل تدميراً لذاكرة الأمكنة، ليس فقط لذواكر الناس، بل لكل ما يتعلّق بالأمكنة وما أنتجته من أفكار ومعتقدات وعادات وطقوس وفنون، لكنني كنت أكتشفُ بعد قليل أن هؤلاء الناس المُرحَّلين يحملون معهم كل ذلك إلى مواطنهم الجديدة، ويرفضون أن يسلموا للموت وللاندثار، ما أنتجه آباؤهم و أجدادهم، من كنوز، وتذكَرت أن هذا ما فعله الفلسطينيون ذات يوم، وأهل الرقّة مثلاً، حين هجَّرهم الدواعش ومن بعدهم الأمريكيون، وهذا ما سنراه فيما سأجتزئه أدناه من فصل حمل عنوان « مونولوج البئر المغلقة»، وهو فصلٌ زاخرٌ بالمعتقدات الشعبيّة البيلاروسيّة كما روتها القاصة وكاتبة الشعر الشعبي الغنائي ماريّا فيليشكو للمؤلفة، وهي معتقداتٌ ذات خيالٍ جامحٍ جميل، وبعضها يشبه ما هو عندنا.

تقول الروائيّة سفيتلانا ألكسييفيتش: وصلت بصعوبة إلى مزرعة قديمة، عبر الطين المتشكل بعد ذوبان الثلج في الربيع. تعطلت فجأة سيارة الجيب التي أستقلُّها وتبدو كأنها سيارة للشرطة – لكن لحسن الحظ بجانب بيت ريفيّ، تظلِّله أشجارُ السنديان والقيقب الواسعة. وصلت إلى القاصّة

وكاتبة الشعر الغنائي المشهورة في بوليس – ماريا فيدوتوفنا فيليشكو. قال لها ابن صاحبة البيت:

– لقد هجّروا مئات القرى؛ عشرات آلاف من الناس... أتلنتيدا العظيمة... لقد توزعوا على مساحة الاتحاد السوفييتي، تصعب إعادتهم. لا يمكن أن ننجو. فقدنا عالماً بأكمله، مثل ذلك العالم لن يكون، ولن يتكرر. استمعي لأمي...

حديث غير متوقع، ابتدأ بجديّة، وللأسف، لم يستمر. انتظرني عمل عاجل. لقد أدركت: أنّهم يتركون بيتهم الأم للأبد.

ظهرت صاحبة البيت عند العتبة. عانقتني كأخت، وقبلتني.

– عزيزتي لقد أمضيت هنا شتاءين. الناسُ لا يأتون... الوحوش تتجوّل... قفز أمامي ثعلب، شاهدني ودهش. إنّه الشتاء، النهار طويل، والليل أطول، كالحياة، لكنت غنّيت لكِ لو كان لدينا الوقت، ولأسمعتك حكايات. الإنسان المتقدم في السن يمل العيش، والحديث – هو عمله. في وقت ما كان الطلاب يأتون إليَّ من العاصمة، يسجلون أحاديثي على آلة تسجيل. كان ذلك منذ زمن طويل... قبل تشرنوبل...

ماذا أحدثك؟ وهل يسعفني الوقت... «بَصّرتْ» لي ساحرة على المياه منذ فترة ودلتني على الطريق... جذورُنا يُقتلع من الأرض. أجدادنا وأجداد أجدادنا عاشوا هنا. ظهروا هنا في الغابات وتلا بعضهم بعضاً، قرناً وراء قرن، أمّا الآن فقد حلّ هذا الزمن، المصيبة تطردنا من أرضنا. لم تحدث مثل هذه المصيبة حتى في الحكايات، لا أدري.

أتذكرك يا عزيزتي، كيف «بصّرنا» ونحن فتيات... ذكريات جميلة... مرحة... كيف بدأت حياتي هنا... مع أمي وجدتي كانت الحياة مرحة في هذا المكان قبل عام ١٩١٧. حينها كنا ننتظر الزوج. كانوا يسمّونه ذا الملابس – الضيّقة، وعندنا يسمونه الغراب. في الصيف كنا «نبصّر» على الماء، أما في الشتاء فعلى الدخان، إلى حيثُ يتجه الدخان، تتزوجين. كنت أحب «التبصير «على الماء... على النهر... الماء هو أول ما ظهر على الأرض، إنهُ يعرفُ كلَّ شيء. يمكن أن ينبئك بما سيحدث. يضعون الشمعة في الماء، ويسكبون الشمع، فإذا طفت الشمعة، فهذا يعني: الحب قريب، وإذا غرقت – ستبقين ذلك العام بنتاً عزباء. ستبقين بنتاً. أين حصّتي؟

أيـن سعادتـي؟ «بصّرنا» بكل الطـرق... أخذنا المرآة وذهبنـا إلى الحمّـام، جلسنا هناك ليلـة، فإذا ظهر أحـد، يجب دعوته مباشرة إلى الطاولة، وأحياناً يقفز الشيطـان. يحب الشيطانُ العبور مـن خلال المرآة... من هنـاك... «بصَّرنا» علـى الظل... أشعلنـا أوراقاً فوق الكأس، ونظرنا إلى الظل على الجدار. إذا ارتسم صليـب – إلى المـوت، وإذا ارتسمت قبة كنيسة – إلى الـزواج. منا من بكى ومن ضحك... كل واحدة حسب نصيبها... كنا ننزع الحذاء ليلاً، ونضع إحدى فردتيه تحت المخدة. فـإذا ضاقت خلال الليل فذلك يعني أن أحدهـم سيبـدل لـك الحـذاء، تنظرين إليـه جيداً، وتحفظين ملامـح وجهه. أنا جاءني في الرؤيا شخصٌ آخـر، ليس زوجي أندريـه، كان طويلاً وجهـه أبيض، أمّـا أندريه فلم يكـن طويلاً، وحاجبـاه أسودان وكان يضحـك ويخاطبني باسماً: «آخ، مالكتي – سيدتي... سيّدتي أنت...» (تضحـك). عشنا معاً ستين عاماً... أطلقنا إلى الدنيا ثلاثـة أطفال... توفّي.. نقله أولادي إلى المقبرة... قبّلني قبيل الموت لآخر مرّة قائلاً: «آخ، مالكتي – مولاتي، ستبقـين وحدك...». ماذا أعرف؟ عندما تعمَّـر طويلاً تنسى الحياة، وتنسى الحب... لو يعيدنـا الله بنـات ندسّ المشط تحت الوسـادة. أسرّح شعـري وأنام هكـذا. يأتي ذو الملابـس – الضيّقة في المنام. يطلب إرواءَه بالماء أو يسقي حصانه...

كيـف كنا ننثر الخشخاش حـول البئر... دائرة... ونجتمع مسـاءً، ونصرخ في البئـر: «نصيبي أو. و. و. نصيبـي غو. غو. غـوا!» يذهب الصـدى، ونقرأ حسب الصـوت نصيـبَ كلٍّ منّـا. أرغـبُ الآن بالذهاب إلى البئـر... أسـأل نصيبي.. مـع أنَّ ما تبقـى منه قليل. فتـات. بـذار جافـة. والجنـود أقفلـوا الآبـار كلّهـا. وسمّروهـا بالألـواح الخشبية. آبار ميّتـة... مقفلة... بقيـت بئـرٌ واحـدة بجانب مكتـب الكولخـوز. كان في القريـة بصّـارة، قـد «بصّـرت» للنصيـب، ذهبـت إلى ابنتهـا في المدينـة. أكياس... أخـذت كيسين من الأعشـاب الدوائيـة معها. لـو يعيدنـا الله! وهكذا... وأخـذت قطعـاً قديمـة، غلت النقيـع فيهـا... قماش أبيض... من يحتاج لها في المدينة؟ يجلسون في المدينة

أمام شاشات التلفزيون ويبدلون المحطات أو يقرؤون الكتب. أما نحن هنا... فكالطيور... على التراب وعلى الأعشاب، وعلى الشجر قرأنا. إذا تفتحت الأرض طويلاً في الربيع، ولم يَذُبِ الثلج، فانتظر صيفاً جافاً. وإذا كان ضوء القمر خافتاً، ومظلماً، فالقطيع لن يلد. وإذا هاجرت اللقالق باكراً – فسيكون صقيع... (تتحدّث وتهز رأسها على وقع كلماتها).

لديّ أولاد فتيان جيدون، وزوجاتهم لطيفات. وعندي أحفاد. لكن في المدينة مع من ستتحدثين في الشارع؟ – مكان غريب. مكان فارغ للقلب. ماذا ستتذكرين مع أناس غرباء؟ أحببتُ التجول في الغابة، عشنا فيها هناك دائماً مجموعات، ومع الناس. الآن لا يسمحون لنا بدخول الغابة... تقف الشرطة هناك، تحذّر من الإشعاعات....

عامان... رجاني أبنائي عامين: «ماما، اجمعي حاجياتك وتعالي إلى المدينة». وأخيراً تمكنوا من إقناعي. وفي النهاية... أماكن جميلة لدينا هنا، الغابات من حولنا، والبحيرات. بحيرات نقية، فيها حوريات. لقد حدَّثَ كبار السن، بأن الفتيات اللواتي متن مبكراً أصبحن حوريات. تركوا لهنَّ ثياباً على الشجيرات – قمصاناً نسائية، على الشجيرات وعلى حبل علقوه على نبات الذرة. يخرجن من المياه

ويركضن في حقول الذرة. تصدّقين كلامي أم لا؟ الناس هنا اعتقدوا بذلك فيما مضى... واستمعوا للحكايات... لم يكن تلفزيونات حينئذ، لم تكن مصنوعة بعد. (تضحك). انظري... أرض جميلة عندنا! لقد عشنا هنا، لكن أبناءنا لا يريدون العيش هنا. أحب هذا الوقت من السنة... الشمس تسلقت عالياً في السماء، والطيور عادت. ضجرٌ في الشتاء. لا يمكنك الخروج من البيت. تتجول الخنازير البرية في القرية، كما في الغابة. وتأكل البصل... أردت زرع البصل... يجب القيام بعمل ما، لا يمكنك الجلوس، باسطةً يديك تنتظرين الموت. حينئذ لن يأتيك أبداً.

أتذكَّر يا عزيزتي الجنيّ الصغير[1]... الذي يعيش منذ زمن معي، لا أعرف بالضبط –أين، لكن يخرج من تحت الموقد. في ثياب سوداء. وقبّعة جلدية سوداء، والأزرار تلمَعُ على بزّته، تلمع. من دون جسد، لكنّه يمشي. اعتقدت مدّةً، أنَّ صاحب بيتي أتى ليراني.. لا، ليس هو... بل جنيّ صغير... أعيش وحدي، لا يوجد أحد أتبادل الحديث معه، أشرح له ليلاً، ما جرى لي في النهار: «خرجتُ في العادة باكراً..... وقفت وتحرّكت في أرض الدار. فرحت. وكان قلبي سعيداً...». وهكذا يجب المغادرة... وترك منطقتي... في أحد الشعانين أقطفُ الصفصاف، لا يوجد كاهن هنا، أذهب إلى النهر وأُشعلُ الشموع بنفسي. وأضع من أغصانه على البوابة. وأحضر منه إلى البيت، وأنظّف المكان بشكل جيد. أغرس منه في الجدران، وعلى الأبواب، والسقف، وتحت الشرفة. أمشي وأُردّدُ: «...كي تنقذي أيتها الصفصافة بقرتي. وكي تنتج الذرة ويحمل التفاح. ويفرّخ الدجاج والإوز». يجب عليكِ أن تمشي وتكرري الطلب طويلاً.

١– هناك اعتقادٌ راسخ عند كبار السن من الفلاحين والمزارعين في روسيا وأوكرانيا و روسيا البيضاء بوجود ما يسمّونه «دوموفوي»–أي جنّي البيت أو عفريت البيت، و هو على الأغلب مسالم و طيب، و لا يؤذي أصحاب البيت، لكن قد يكون أحياناً خبيثاً أو شريراً.. فيتصرّف تصرفات مشاكسة وما شابه.

كنّا نستقبل الربيع من قبل بفرح... لعبنا وأنشدنا الأغاني. بدأنا من ذلك اليوم، عندما أطلقت ربّات البيوت الأبقار في المرج لأول مرّة. يجب طرد الساحرات... كيلا يُسئن للبقر، ويأخُذن حليبها، لأنها كانت تعودُ إلى البيوت محلوبةً وخائفةً. تذكّري، يمكن أن يعود كلُّ شيءٍ كما كان. وقد كتب عن ذلك في الكتب الكنسيّة. عندما كان عندنا كاهن، قرأ لنا. الحياة يمكن أن تنتهي، ثم تبدأ من جديد. اسمعي ماذا بعد... قلائل من يتذكرون، وقلائل من سيحدثونك. أمام أول قطيع... يجب فرش شرشف أبيض على الطريق، دعي المواشي تمر فوقه، وخلفها فليمر الرعاة. يمرون وهم يقولون: «أيتها الساحرة الشريرة، اقضمي الآن الحجر... اقضمي الأرض... وأنتن أيتها البقرات، ستسرن في المروج والمستنقعات بهدوء. ولن تخفن أحداً – لا الناس الدهاة، ولا الوحوش الكاسرة». في الربيع لا يخرجُ العشب وحده، بل تزحف كائنات نجسة. تختبئ في مكان مظلم، في زوايا البيت. في الحظيرة حيث الدفء. وتزحف من البحيرة إلى الفناء، وفي الصباح تصعدُ على الندى.

يجب على الإنسان أن يدافع عن نفسه. أن يقلب التربة جيداً ويطرد النمل إلى جانب الخوخة، وكي يكون الوضعُ أكثر أماناً – عليك دفن القفل القديم عند البوابة. فتكسر بذلك أسنان القذرين كلهم. وتغلق شفاههم. أمّا الأرض؟ فلا تحتاج المحراث والشوكة فقط، بل تحتاج الحماية أيضاً من الأرواح الشريرة. يجب أن تذرع أرضك مرتين، تمشي وتقول: «أزرعُ.. أزرعُ، وأبذرُ... وأنتظرُ محصولاً جيداً. ولتمتنع الفئران عن أكل الكثير من الحبوب...».

ماذا أتذكر لك أيضاً؟ عن اللقلق، يجب أن ننحني له، ونلقي عليه التحية في الربيع. ونقول له: شكراً، لأنكَ عُدتَ إلى المكان القديم. إنّه يحمي الأرض من الحريق، ويمشطها، ويجب إحضار أطفال صغار. ينادونه: «كلي – كلي –كلي... أيها اللقلق، إلينا! إلينا!». أمّا الأزواج الفتيان الذين تزوّجوا حديثاً، فيخاطبون اللقلق منفردين: «كلي – كلي... فليكن الحب و الود بيننا، وليَنْمُ أطفالُنا لطفاء، مثل الصفصاف».

يصبغُ الجميع في عيد الفصح البيض... بيوض

حمـراء وزرقـاء وصفـراء، وإذا كان البيـت قد شهد مـوت أحـد، فيلوّنون بيضـة واحدة بالأسـود. للأسى والحـزن. البيض الأحمر – للحـب، الأزرق- للحياة المديـدة.... أووو...كما أعيشُ أنـا... أعيش وأعيش. أعـرف كل شـيء: مـاذا سيكون في الربيـع، وماذا في الصيـف... الخريف والشتـاء... لمـاذا أعيش؟ أنظر النور... ولا أقول إنني لست فرحة. عزيزتي... اسمعي هـذا أيضاً... ضعي في عيد الفصـح بيضة حمراء في المـاء، إذا استقرت، فاذهبـي واغسلي وجهك. يصبح وجهـك أجمـل. ونقيّاً. وإذا أردت أن يـزورك أحدٌ من أقربائك الذين ماتـوا، في الحلم، فاذهبي إلى القبر، ودحرجـي البيضة علـى الأرض وقـولي: «أمي، تعالي إلي أريـد أن تواسيني». وقولي لهـا كل شيء. حياتك. وإذا كان زوجك يغضبـك، فستقدم لك نصيحة. قبل أن تُدحرجـي البيضـة، ثبتيهـا في راحتيـكِ. أغمضي عينيـك وفكـري... لا تخـافي القبـور، يخافونها عادة عندمـا يحملون المتوفـى، يقفلون النوافـذ، والأبواب، كيلا يدخل الموت. إنه دائمـاً بلباس أبيض، كلّه أبيض ويحمـلُ منجلاً. أنـا نفسـي لم أشاهده، لكـن الناس ذكروا ذلك لي... ومن يلتقيه... الأفضل ألّا يقع تحت نظره. (تضحك): «ها. ها. ها..».

أذهب إلى المقابر، وأحمل بيضتين: حمراء وسوداء. واحدة بلون الأسى. أجلس بجانب زوجي، هناك صورته على الشاهدة، ليست في فتوّته ولا في شيخوخته، صورة جيدة، وأقول له: «لقد أتيتُ، أندريه. هيا نتحدث». أطلعه على الأخبار كلهـا. وينـاديني أحدهم... ها هو الصوتُ يطـير من مـكان – مـا: «آه، سيدتـي – مالكتـي...». انتهيتُ مـن زيارة أندريـه، أذهب إلى ابنتـي... ابنتي ماتت في الأربعـين من عمرها، السرطـان تسلل إليها، لم يساعدهـا شـيء، لم نـترك مكاناً لم نأخذهـا إليه، صبيّةً رقدت في الأرض... جميلة... يطلبون في العالم الآخر الأعمـارَ كلّها: كباراً في السـن، وشباباً. جميلين وبشعين. حتى الصغار. من يناديهم إلى هناك؟ وبماذا يستطيعـون أن يتحدثوا عن هـذا العالم؟ لا أفهم... أنا

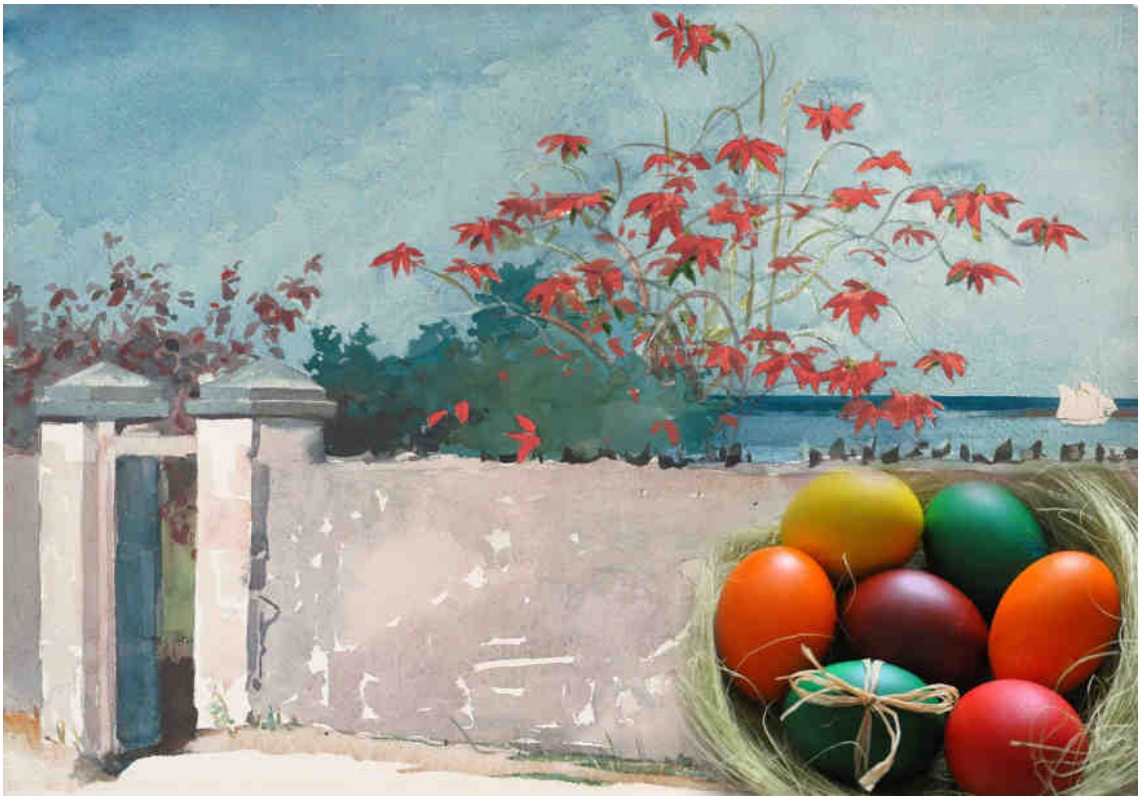

لا أفهم. وحتى الناس الأذكياء لا يفهمون أيضاً. عدد كبير من البروفيسورات في المدينة. قد يعرف الكاهن في الكنيسة. عندما ألتقيه - سأسألُه. أووو أتحدث إلى ابنتي هكذا: «ابنتي! زينتي أنت! مع أية طيور ستصلين من المكان البعيد؟ مع طيور العندليب أم مع طيور الوقواق. من أية جهة أنتظرك...». وهكذا أغني لها وأنتظر. قد تظهر فجأة... وتعطيني إشارة... لكن لا ينبغي البقاء في المقابر حتى الليل، يجب الخروج في الساعة الخامسة... بعد الغداء... الشمس تقف عالياً في السماء، لكن ما إن تبدأ بالانحدار إلى الأسفل... إلى الأسفل... ودّع... وغادر... إنّهم يريدون البقاء وحدهم هناك. هكذا نحن. متشابهون... للموتى حياتهم، كما لدينا. أنا لا أعرف، لكن أتوقع. أعتقد هكذا. وقد أضيف لك... عندما يموت الإنسان وقد تعذّبَ طويلاً، وفي البيت كثيرٌ من الناس، على الجميع أن يخرج إلى الفناء، كي يبقى وحده. وحتى أمّه وجدته والأطفال يجب أن يخرجوا.

أتجوّل منذ الفجر في الفناء وفي حديقة المنزل. أبنائي جيّدون، نمو كالسنديان. كانت سعادة، ولكن ليس دائماً، لقد عملت طوال حياتي. كم نَقبت يداي من البصل وحده؟ وكم نقلت، وحرثت، وزرعت... (تكرّر). وحرثت، وزرعت... والآن أحمل البذور بالمنخل. بقي لدي بذور: فاصولياء وعباد شمس... سأبذُرها هكذا، على الأرض العارية. فلتعِش. والورودُ سأغرسها في الفناء... هل تعرفين كيف تفوح رائحة الكوسمي الخريفيّة ليلاً؟ ولا سيّما قبيل المطر، إنها تصدر رائحة قويّة. والبازلاء الحلوة... لكن حلّ زمن، لا تستطيعُ لمس البذور فيه، ستبذرها عبثاً في التراب، لأنها ستنمو، وتستخلصُ طاقةً، ولكن ليس لأجل الإنسان. إنّه زمن آخر... الربُّ أوحى لنا بإشارة... لقد حلمت في ذلك اليوم، عندما حصلت حادثة تشرنوبل الملعونة، بالنحل - أعداد كبيرة من النحل. تطير وتطير إلى مكان ما، سرباً وراء سرب. والنحل في المنام هو حريق. الأرض ستحترق... الله أعطى إشارة، بأنه سيستضيفُ الإنسان على الأرض، هو ليس في بيته، إنه في ضيافة. نحن في ضيافة هنا... (بكت).

ناداها أحد الأبناء:

- ماما، ماما! لقد وصلت السيارة...

آخر الكلام

مِنْ أَخْبَارِ الدِّيك في التراث

مُحَمَّـد قاسـم

الدِّيكُ ذَكَرُ الدَّجاج، وجمعُه دُيُوْكٌ وديَكَةٌ، وكنيتُهُ أبو نَبْهان، وأبو يقظان، وأبو حسَّان. ويُسَمَّى الأَنيس والمُؤانس.

ومِنْ شأنه أَنَّهُ لا يحنو على ولده، ولا يَأْلَفُ زوجةً واحدةً، وهو أَبْلَهُ الطَّبيعة، وذلك أَنَّهُ إذا سقط من حائط، لم يكنْ له هدايةٌ تُرشده إلى دار أهله.

وفيه من الخصال الحميدة أَنَّهُ يُسَوِّي بين دجاجه، ولا يُؤْثِرُ واحدةً على أُخرى إلَّا نادراً.

وأعظم ما فيه من العجائب معرفة الأوقات اللَّيليَّة، فيُقَسِّطُ أصواته عليها تقسيطاً لا يكاد يغادر منه شيئاً، سواء طال أم قصر، ويُوالي صياحه قبل الفجر وبعده.

وزعم أهل التجربة أنَّ الدِّيك الأبيض الأفرق – وهو الذي عُرْفُهُ مَفْرُوْقٌ – يحفظُ الدّار الذي هو فيها، وأَنَّ الرَّجُلَ إذا ذَبَحَهُ لم يَزَلْ يُنْكَبُ في أَهْله وماله.

ومن طريف خبر الدِّيك أَنَّ دِعْبِلاً الخُزاعيّ الشَّاعر قال: أتيتُ سهل بن هارون بن راهويه، وكان إليه النِّهايةُ في البُخْل – في حاجة، فأطلتُ الجلوسَ عنده، وأَخَّر غداءَه لقيامي، فجلستُ على عَمْد، فلمَّا اضطررته وتمكَّنَ منه الجوعُ قال: ويلك يا غُلام غَدِّنا.

قال: فجاءت المائدةُ وعليها قصعةٌ فيها مَرَقٌ وديكٌ ليس قبلها ولا بعدها غيرُها، فاطّلع في القصعة، ففَقَدَ الرّأسَ. فقال لغلامه: أين الرّأسُ؟ قال: رميتُ به يا مولاي!

فقال: إنِّي والله لأمقتُ مَنْ يرمي برجْله، فكيف برأسه؟ ولو لَمْ يكنْ فيما فعلتَ إلَّا الطِّيَرَةُ والفَأْلُ لكرهتُهُ، أَمَا علمتَ أَنَّ الرّأسَ رئيسُ الأعضاء، ومنه يَصْدَحُ الدِّيك، ولولا صوتُهُ ما أُريد؟ وفيه عُرْفُهُ الذي يُتَبَرَّكُ به، وعينُهُ التي يُضْرَبُ بها المَثَلُ في الصَّفاء، فيُقال: شرابٌ كعين الدِّيك، ودماغُهُ عجيبٌ لوجع الكليتين، ولَمْ يُرَ عَظْمٌ أهشُّ تحت الأسنان منه. وهَبْ أَنَّك ظننتَ أَنِّي لا آكلُهُ، أليس العيالُ كانوا يأكلونه؟ فإنْ كان قد بلغ من نُبْلك أَنَّك لا تأكلُهُ فعندنا مَنْ يأكلُهُ. أَوَ ما علمتَ أَنَّه خيرٌ مِنْ طرف الجناح، ومِنْ رأس العُنُق؟ انظرْ لي أين هو؟ فقال: والله ما أدري أين هو، ولا أين رميتُ به.

فقال: أنا أدري أين هو، رَمَيْتَهُ في بَطْنك؛ قاتلك الله!

وقالوا: ما كَلَّمْتُهُ إلَّا **كحَسْو الدِّيك**، يريدون القلَّة والسُّرعة.

وضربوا المثل بصفاء عينه، فقالوا: **أصفى من عين الدِّيك**؛ قال عَدِيُّ بْنُ زيد العِبَادِيُّ:

ودَعوا بالصَّبُوْحِ يوماً فجاءَتْ ... قَيْنَـــةٌ في يَمِيْنِهـــا إبْرِيْـــقُ
قَدَّمَتْهُ على عُقَـارٍ كعَيْـنِ الد ... ديـكِ صفَّى سُـلافَهَا الرَّاوُوْقُ

وقال أبو ذُؤيب الهُذَليُّ:

وما إنْ فَضْلَـهٌ من أَذْرعَـــاتٍ ... كعَيْنِ الدِّيكِ أَحْصَنَها الصُّرُوْحُ
بأطيَـــبَ من مُقَبَّلِهـــا إذا مـا ... دَنَـــا العَيُّوْقُ واكْتَتَـــمَ النُّبُوْحُ

[الفَضْلة: الخمر. الصُّروح: جمع صرح، القَصْرُ. النُّبُوْح: أصوات النّاس وجَلَبَةُ الحيِّ. العَيُّوْق: نجمٌ يطلع بحيال الثُّرَيَّا].

بَيْضَةُ الدِّيْك: يُضْرَبُ بها المَثَلُ للشيءِ يقع نادراً، ويحدثُ مَرَّةً، فيُقَالُ: هذا بيضة الدِّيك، أي لَمْ يَجْرِ أكثرَ من مرَّة، قال بَشَّارُ بْنُ بُرْد:

يا أَحْسَنَ النَّاسِ رِيْقاً غَيْرَ مُخْتَبَرٍ ... إلَّا شَـهَادَةَ أَطْرَافِ المَسَـاوِيْكِ
قَدْ زُرْتني مَرَّةً في العُمْرِ واحـدةً ... ثَنِّيْ ولا تَجْعَلِيْها بَيْضَةَ الدِّيْكِ

حُسْنُ الدِّيْك: يُضْرَبُ به المَثَلُ، كما يُضْرَبُ بحُسْن الطاووس.

وروى الجاحظ أنَّ جعفر بن سعيد كان يزعم أنَّ الدِّيك أَحْسَنُ من الطّاووس، وأنَّهُ مع حُسْنه وانتصابه واعتداله وتَقَلُّعه إذا مشى -تَقَلَّع: إذا مشى وكأنَّهُ يَنْحَدرُ – = سليمٌ من مقابح الطاووس، ومن مُوْقه – خُمْقه – وقُبْح صوته، ومن تَشَاؤم أهْل الدَّار به، ومن قُبْح رِجْلَيْه. وكان يَزْعُمُ أنَّهُ لَوْ مَلَك طاووساً لألْبَسَهُ خُفّاً!

وإنّما يُفْخَرُ له بالتَّلاوين، وبتلك التَّعاريج والتَّهاويل التي لألوان ريشه، ولرُبَّما رأيتَ الدِّيْكَ النَّبَطيَّ وفيه شَبَهٌ بذلك، إلَّا أنَّ الدِّيْكَ أجملُ من التُّدْرُج لمكان الاعتدال والانتصاب والإشراف، وأَسْلَمُ من العيوب من الطّاووس.

ولو كان الطاووسُ أَحْسَنَ من الدِّيك النَّبَطيِّ في تلاوين ريْشه فقط لكان فَضْلُ الدِّيك عليه بفَضْل القَدِّ والخَرْط، وبفَضْل حُسْن الانتصاب، وجودة الإشراف= أَكْثَرَ من فَضْل حُسْن ألوانه على ألوان الدِّيك، ولكان السَّليمُ من العيوب في العين أجملَ، **وأَوَّلُ مَنَازِلِ الحَمْدِ السَّلامةُ من الذَّمِّ.**

سماحة الدِّيْك: قالوا أَسْمَحُ من اللَّافظة، واختُلف في تفسيره، فقيل: اللَّافظة الدِّيْكُ، لأنَّهُ يَأْخُذُ الحَبَّةَ بمنقاره، فلا يأكلُها، ولكن يُلْقيها إلى الدَّجاجة. والهاء في اللّافظة للمُبَالغة، مثل راوية.

ديْكُ الجنِّ: يُضْرَبُ مثلاً للدِّيك النَّجيب الحاذق الكثير السِّفاد، ومنه لُقِّبَ ديكُ الجنّ الشّاعرُ المشهور، وهو أحد شعراء سيف الدَّولة الحَمْدَانيِّ.

ديك مُزَبِّد: يُضْرَبُ به المَثَلُ للحقير يجلب النَّفْعَ الكثير، والوضيع يصيرُ له شأنٌ رفيعٌ.

ومُزَبِّدٌ أبو إسحاق المدنيُّ كثير المجون حلو النَّادرة كان مُبَخَّلاً إلى الغاية.

وخبره أنَّهُ كَانَ له ديكٌ قديمُ الصُّحبة، نشأ في داره، وعُرف بجواره، فأَقْبَلَ عيد الأضحى، ووافق منْ مُزَبِّد رقَّةَ الحال، وخُلُوَّ البيت من كلِّ خَيْرٍ ومَيْر. فلمَّا أراد أنْ يَغْدُوَ إلى المُصَلَّى، أوصى امرأتَهُ بذبح الدِّيك، واتّخاذ الطعام لإقامة رَسْم العيد، فعمدت المرأةُ لأخذه، فجعل يصيحُ ويثبُ من جدار إلى جدار، ويسقطُ من دار إلى دار، حتّى أَسْقَطَ على هذا منَ الجيران لَبِنَةً، وكَسَرَ لذلك عَضَادَةً، وقَلَبَ للآخر قارورةً. فسألُوا المرأةَ عن القصَّة في تعرُّضها له، فأخبرتهم بها. فقالوا: واللّه ما نرضى أنْ يبلغَ حالُ أبي إسحاق إلى ما نرى – وكانوا هاشميّين مياسيرَ أجواداً-فبعث بعضُهم إلى داره بشاة، وبعضُهم بشاتَيْن، وأَنْفَذَ بعضهم بقرة، وتَغَالَوا في الإهداء، حتّى غَصَّت الدَّارُ بالشِّياه والبَقَر، وذبحت المرأةُ ما شاءتْ، ونصبت القدورَ، وسَجَرَت التَّنُّور. وكرَّ مُزَبِّدٌ راجعاً إلى منزله، فإذا هو مملوءٌ ثُغَاءً وخُواراً، وروائحُ الشِّواء والطَّبيخ قد امتزجتْ بالهواء، فقال للمرأة : أَنَّى لك هذا الخيرُ؟ فقَصَّتْ عليه قصَّة الدِّيك، وما ساق اللّهُ إليهم ببركَته من الخيرات، فامتلأ سروراً، وقال لها: احتفظي بهذا العلْق النَّفيس، وأَكْرمي مثواه!

ومن لطيف أخبار الدِّيك ما حكاه إسحاقُ المَوْصليُّ أنَّ أُمَّ الهيثم الأعرابيَّة سَمِعَتْهُ يُنْشدُ:

وكَأْسٍ مُدَامٍ يَحْلِفُ الدِّيْكُ أَنَّها ... لدى المَزْجِ من عَيْنَيْهِ أَصْفَى وأَنْوَرُ

فقالتْ: يا أبا محمَّد، بلغني أنَّ الدِّيْكَ منْ صالح طُيوركم، وما كان ليحلفَ باللّه كاذباً!!